
تصوير نورسين نوفل
رواية
د. محمد حمدان
عن ظهر قلب
كيان للنشر والتوزيع

عن ظهر قلب

د.محمد حمدان

رواية

إهداء

إلى أول من آمن بي..

أول من رأت بي ما يستحق..

وإلى التي أدعو الله أن أكون جديرًا بها..

ولها دائمًا..

سوسن..

إلى القارئ..

«العقل كشف لنا عن الصراع من أجل الوجود، وعن القانون الذي يقضي بأن أضطهد الذين يقفون عثرة في سبيل إشباع رغباتي. هذا هو استنتاج العقل. العقل لا يمكن أن يعلمنا حب قريبنا، لأن ذلك مجافٍ للعقل».

أنّا كارنينا - ليو تولستوي.

إنني لستُ أهدف مخاطبة العقل في هذا الكتاب.. ولن يكون ذلك منهجي أبدًا. إنما أضع قلبي بين أيديكم.. لتقرؤوه. وإن حدث أن وُجِد ما يخاطب العقل ها هنا، فذلك من المكاسب الثانوية.. ليس إلا.

إذا كنتَ عزيزي القارئ تملك أحكامًا مسبقة، وتظن بأنك راسخ الاعتقاد فيما تظن بأنه الحقيقة، فأتمنى أن تعيد النظر في قراءة هذا الكتاب.

د. محمد حمدان

استهلال

25/12/1476

جنوب بوخارست ..

لم يتغير على الإطلاق، بشعره الطويل وشاربيه المميزين، حاجبيه المرتفعين وعينيه الواثقتين. قد تبدو عليه التجاعيد وأثر الزمن.. لكنه لم يزل على تسلّطه وعجرفته ذاتها التي كانت قبل دخوله السجن. والآن، يمشي بكِبره المعروف معتدًا بنفسه فوق حصانه إلى ما كان يحسبه مجدًا جديدًا.. ينفض الغبار الذي أثقل مملكته القديمة.

كان حوله ثلة من جنوده أو عساني أقول مرتزقته، وكانوا يمشون على امتداد الطريق الأخضر الجميل من جنوب بوخارست باتجاه جورجيو كتعزيزات لقواته. وكان مستعدًا لانتزاع نصر مؤزّر في المعركة القائمة في الجوار.

لا يمكن لغجري أن ينسى ما فعله الأمير في جورجيو وباقي جنوب والاشيا* وشمال بلغاريا قبل سنين. يتحدث غجري عجوز وهو يراقب موكب الأمير.

ما هي إلا لحظات حتى يخترق الأميرَ سهمٌ في الصدر إلى اليمين قليلاً، فيميل الأمير إلى الوراء ثم يسقط على الأرض.. بينما يكمل الحصان السير لبضع خطوات إضافية ثم يتوقف ويصهل قليلاً، ويزفر كمن انزاح عن ظهره حمل ثقيل، لم يتجرأ أحد من الجنود على الاقتراب.

على بعد أمتار قليلة، يقف رجل ويبدو في لباس أحد بويار** الأمير، وقد أنزل يديه وفي إحداهما قوسٌ يبدو أنه أطلق منه للتو. لم يتعرّض

---

*إمارة والاشيا هي إمارة جنوب رومانيا الحالية، وكانت أثناء الحكم التركي تحت حكم عائلة دراكولا.

** بويار «Boier» كلمة رومانية تعني نبيل.

له أحد من الجنود وبدوا وكأنهم يعرفونه. يقترب الفارس المجهول من الأمير المسجي بدمائه. ويبادره فيقول:

مرحبًا عماه. هذا أنا. لا بد من أتمرن أكثر على التصويب، ألا توافقني؟ فقد كنتُ أريد إصابة قلبك لكنني كما ترى قد أخطأت. ثم ينظر حوله حيث الجنود ينظرون إليه. ويتابع: يبدو أن جنودك قد تعرّفوا عليّ دون مشكلات. هل عساك تذكرني؟ يتحدث الأمير بصعوبة: رراددد.. أيها الوغ.. يقاطعه البويار قائلاً: أيها الوغد. أليس ذلك ما تريد قوله لي؟

أكنتَ تبحث عن مجدك الضائع هنا مرة أخرى يا عماه؟ عندي لك مفاجأة. يتأتئ الأمير جاهدًا محاولاً التلفظ ببعض الكلمات. لكن البويار يتابع دون مبالاة: أنا لستُ رادو.. ثم يهمس له بكلمة في أذنه، ويردف بصوت عالٍ: لقد انتهى كل شيء يا عماه.

يقف البويار ويستل سيفه وبضربة واحدة يفصل رأس الأمير عن جسده. ثم يمد يده فينزع الخوذة عن رأس الأمير ويمسك الرأس من شعره الطويل ويرفعه عاليًا، صائحًا بجنود الأمير: لقد انتهى الأمر.. مات الأمير فلاد تيبيش. مات إلى الأبد.

*****

---

* مات إلى الأبد كناية عن أنه يوقف سيل الشائعات التي تتحدث عن كونه لا يموت.

الفصل الأول
كوزمينا

14

الوقت الحالي

مدينة كونستانتسا

ساحل البحر الأسود

تستلقي امرأة على أريكة بينما تضع مجلةً فوق وجهها. يداها تسترخيان متشابكتين فوق بطنها. ترفع قدميها فوق بعض الوسائد.

يدقّ أحدهم الباب قائلاً: دكتورة، هناك مريض.

فتجيب بتثاقل: 5 دقائق!

وتبدأ بالحركة بكسل واضح. عادة ما تسرق بضع دقائق كهذه في أوقات نادرة من اليوم كي تريح جسدها قليلاً. إنها اليوم مجهدة أكثر من العادة وذلك لأنها بقيت مستيقظة لوقت متأخر جداً كي تحضّر لموعدها الهام في الغد في جامعة كارول دافيلا. هي تعبة أكثر من المعتاد ليس لأنها لم تعتد السهر إلا أنها قد بالغت بالأمر كثيراً بالأمس وذلك لأهمية ذلك الموعد..تغسل وجهها، وتنظر مطولاً في عينيها بالمرآة لتلحظ ذلك السواد تحت عينيها ثم تخاطب نفسها: كانت ليلة قاسية بحق. ثم ترتب هندامها وترتدي عباءة الوقار التي تظهر فيه دوماً أمام الجميع. ويدخل المريض لتمارس سحرها المهني الرتيب.

كان المريض في الخمسينيات من عمره، شاحبًا، مرتابًا، يبدو كأنها المرة الأولى التي يأتي فيها إلى عيادة أمراض قلب.

بدأ حديثه بعبارة: إن المرء قد يعيش حياته كاملة يثق في قلبه.. دون أن يظن أنه سيأتي يومٌ ما ويخذله.

- إن القلب عضو فريد يا سيدي، ويمكن القول بأنه العضو الوحيد الحُرّ، فإن نظرتَ له نظرةً تشريحية ستجده يتعلّق ببقية الجسد من خلال مشابك -إن جاز لي قول ذلك- تمسك به من أعلى بشكل جيد؛

الشريـان الأبهـر والوريـد الأجـوف العلـوي بالإضافـة إلى الوريـد الرئـوي. وتخيَّـل بـأن هـذه المشابك هـي كل مـا يربطـه بالجسـد، بينما يتـدلّى معظم القلـب في التجويـف الخـاص لـه في صـدرك بشـكل يسـمح لـه بالحركـة. أتعلـم أن قلبـك يهـتز لحركاتـك المفاجئـة؟ وكمـا أنـه فريـد تشريحيًـا هـو فريـد وظيفيًـا، فهـو العضـو الوحيـد الـذي لا يحتـاج لأوامـر مباشرة مـن الدمـاغ كي يقـوم بعملـه. إنـه يملـك «حكمًـا ذاتيًـا» كمـا يقولهـا السياسيون.

تقول هذه العبارة الأخيرة ثم تضحك ضحكة رقيقة.

- اسـمي كوزمينـا دالـكا، أعمـل أخصائيـة أمـراض القلـب والشرايـين. يقـال بـأني أفضـل مـن يعتـني بقلـب أحدهـم في رومانيـا، إن لـم يكـن عـلى مسـتوى أوروبـا الشرقيـة. وأنـا أول امـرأة تحصـل عـلى مثـل هـذا الـشرف. لـذا اطمـئن؛ سـتحصل عـلى أفضـل عنايـة ممكنـة.

هكـذا تحدثـت د. كوزمينـا دالـكا بلهجـة الواثـق لمريضهـا، الـذي لا يتعدى كونـه إحـدى الحـالات الاعتياديـة الـتي تراهـا كل يوم.

هي في نهايـة الثلاثينيـات وهـو سـن صغـيرة عـلى إنجـازات كالـتي جمعتهـا في سـجلها الـشرفي في المهنـة. لا بـد لكوزمينـا أن تـترك أثـرًا في نفـس كل مـن يتعامـل معهـا.. بنظرتهـا الواثقـة، وكلماتهـا المنتقـاة. امـرأة متزنـة، خـير مثال عـلى المـرأة المسـتقلة.. المثقفـة والناجحـة في مجـال عملهـا. هـي قصـيرة إلى حـد مـا، شـعرها أسـود قصـير إلى منتصـف الرقبـة، هكـذا تحبـه وهكـذا كان أبـدًا، حيـث لـم يـره أحـد أبـدًا عـلى غـير هـذه الهيئـة. تمتلـك ملامـح وجـه مريحـة، عينـين داكنتـين، شـفاهًا غليظـة. لا تضـع مسـاحيق التجميـل إلا في حـالات نـادرة. تغلـب الأناقـة البسـيطة عـلى مظهرهـا. ورغـم أنهـا لا توصـف بالمـرأة الجميلـة بالمعـنى التقليـدي للكلمـة لكنهـا ذات جاذبيـة لا يمكـن تكرارهـا. وهـو أمـر ينسـجم مـع اسـمها، «كوزمينـا»، وهـي كلمـة رومانيـة يقابلهـا جميلـة أو فاتنـة بالعربيـة.. وفي حالـة كوزمينـا دالـكا، كلمـة فاتنـة هـي الأقـرب.

تتابع كوزمينـا الكشـف عـلى مريضهـا بعنايـة، وإلى أن تنتهـي منـه لنتعـرف

أكثر على شخصها.

تعمل كوزمينا دالكا في مشفى المركز الأوروبي للعناية الطبية الواقع في جادة توميش في مدينة كونستانتسا*. المدينة التي تحب.

ما يميّز كوزمينا هو توقها للبحث العلمي، فهي لم تنصرف إلى العمل بعلاج أمراض القلب والشرايين، واكتفت بالعائد المادي الأكثر من ممتاز. لا، على الإطلاق. بل إن قسماً جيدًا من وقتها موزّع بين محاضرة أسبوعية تلقيها في جامعة كارول دافيلا للطب والصيدلة إلى جانب البحث العلمي، وهو قد يكون السبب الرئيسي لشهرتها في هذا التخصص.

هي ليست مضطرة إلى الانكفاء على علاج المرضى، ولم تنجرف خلف العائد المادي المذكور، وذلك لأن والدها ترك لها ثروة لا بأس بها، من عمله حوتًا من حيتان ميناء كونستانتسا أكبر ميناء على ساحل البحر الأسود وأحد أكبر موانئ أوروبا.

السيد جوزيف دالكا والد كوزمينا، هو عضو سابق في الحزب الشيوعي الروماني، وكان من ضمن الصف الثاني من قادة الحزب، والذين انضموا للثورة ضد حكم الديكتاتور نيكولاي تشاوتشيسكو، وشكلوا فيما بعد جبهة الخلاص بقيادة أيون إليسكو، والذي حكم البلاد وكان أول رئيس منتخب للجمهورية الرومانية، ولثلاث فترات متتابعة انتهت آخرها سنة 2000.

وبحكم منصبه وعلاقاته لم يكن صعبًا على السيد جوزيف دالكا أن يؤمّن لنفسه سلطة في ميناء كونستانتسا وعاد عليه ذلك بثروة ليست ضئيلة.

انتهت حياة السيد دالكا بشكل مؤسف في حادث سيارة مع عشيقته،

---

*تقع مدينة كونستانتسا على بعد 200 كيلومتر شرق بوخارست وهي أكبر ميناء على شاطئ البحر الأسود

-حيث إن والدة كوزمينا توفيت بسكتة قلبية أثناء الثورة، حين كانت كوزمينا ما تزال مراهقة، وفي ظروف غامضة-، لا يعرف أحد حقيقة ما حدث غير أن السلطات الرسمية أصدرت رواية تقول بأنه مجرد حادث لا أكثر، رغم وجود شهود أكّدوا سماع صوت بعض العيارات النارية أثناء الحادثة.

القديسة داشيانا والدة كوزمينا، كما كان يحلو لجوزيف أن يدعوها.. كانت لربما مسؤولة عن توريث كوزمينا العديد من الطباع، أهمها الاتّزان. هي من أصول مولدافية، ولطالما كان جوزيف يقول إن الدماء الغجرية التي تسري في عروقها هي ما سيتحمل يومًا ما مسؤولية موتها. وهي التي أصرت في اليوم المشؤوم أن تخرج إلى ضواحي بوخارست حيث أصابتها السكتة القلبية، ونظرًا لظروف الثورة لم تجد من يسعفها في الوقت المناسب.

بعد وفاة داشيانا وبعد استقرار الأمور بيد جبهة الخلاص في بوخارست، رحلت كوزمينا مع والدها إلى كونستانتسا، وكانت سعيدة بذلك. انتقى جوزيف لهما بيتًا مريحًا في المدينة القديمة قريبًا من مكان سلطته الجديدة في الميناء، وقريبًا من وجه كونستانتسا السياحي، حيث تقع كاتدرائية القديسَيْن بيتر وبول، ومبنى الكازينو الشهير، ومسجد كارول مركز المسلمين في رومانيا، وهم على الأغلب من الأتراك والتتار.

لم تكن كوزمينا تشعر بالإنسجام مع والدها، ولهذا في أول فرصة سنحت لها أصرّت على السفر إلى الخارج كي تكمل دراستها. وفعلاً، كان لها ذلك، فذهبت إلى ميونيخ في ألمانيا وهي ما تزال في السادسة عشر من عمرها. ولم تعد إلى بلادها إلا بعد وفاة أبيها.

لم يؤثر موت السيد جوزيف على كوزمينا كثيرًا، وهي التي لم تأتِ بسوء على سيرته أمام أحد، لكنها في قرارة نفسها كانت دائمًا ما تقول بأنه على الأرجح لقيَ جزاء أفعاله الشنيعة أخيرًا، وأنه قد يكون أفضل ما فعله لها على الإطلاق هو أن مات وترك لها تلك الثروة كي لا تُضطر

إلى الغرق في روتين علاج المرضى، وتجد لنفسها وقتًا للبحث العلمي الذي تحب.

على الصعيد العاطفي لكوزمينا لم تكن على علاقة جادة بأحدهم على الإطلاق، عدا ذلك العبث المعتاد في عمر المراهقة لم يكن هناك ما يستحق الذكر أو ما قد يترك أثرًا في قلبها. هل قلتُ قلبها؟ أخشى أنني فعلتُ ذلك حقًّا! هذا هو جوهر كوزمينا، القلب، لطالما كان محط اهتمامها منذ أن توفيت والدتها بالسكتة القلبية. لم يعد ممكنًا لها أن تزيح القلب عن موقعه كمركز لكل شيء قد تعده ذا أهمية. حتى في علاقاتها مع الرجال. في مراهقتها بدت كأنها تختبر تجربة علمية عن القلوب. وتتعدى نظرتها العلمية تلك ما هو موجود في الكتب التي لا بد أنها قرأتها فيما بعد.. بل تظن أنها تملك ما يتخطى ذلك. شيئًا لا يمكن أن يُعرَف من الكتب أو بالعلم، إنه شيءٌ تعرفه بالقلب وحسب.

من الطبيعي لكوزمينا أن تشعر بالخواء بعد كل ذلك، ورغم أنه من السهل على امرأة -لنقل فاتنة مثلها- أن تحصل لها على رجل ذي شأن. لكنها لم تكن تنظر للأمر بهذه الطريقة. فهي بتجاربها معهم تنظر إليهم كشيء دوني لا يرتقي لكي يكون شريكًا دائمًا لها. قد يكون خادمًا مؤقتًا، لكن لا يمكن لمخلوق حيواني مماثل أن يكون شريكًا دائمًا.. لطالما كانت تقول بأن المال أفضل من الرجل.. لكن المال لا يستطيع أن يدفِئك آخر الليل. ولذلك كانت تفكر جديًا في اقتناء كلب، لولا أنها خافت من أن تقصِّر في حقه، لأنها لا تملك الكثير من الوقت لتقضيه معه.. وعليه، آثرت الشعور المضني بالخواء على أن تظلمَ كلبًا.

في لحظات ضعفها، تشعر كم هي وحيدة أمام هذا العالم الهائل، وتستقوي عليه بقتل الوقت -حرفيًا- في العمل والأبحاث، وإن كان ثمة المزيد من الوقت فتقضيه غارقة في عوالم أخرى بين الكتب.

تؤدي كوزمينا واجبها المهني كما هي العادة ثم تعود إلى البيت. هو بيت راقٍ في منطقة بالازو ماري، شمال كونستانتسا وغرب ماميا المعلم

السياحي الشهير، وقد رحلت إليه مباشرة بعد وفاة والدها. والبيت يبدو من الداخل تمامًا كما هو مظهر كوزمينا العام ذاته، أنيق لكن بسيط. ما أن تدخل حتى تعكف على أوراقها تحضيرًا لموعدها الهام غدًا في جامعة كارول دافيلا، مع البروفيسور أمانار، بخصوص آخر أبحاثها وقد يكون أهمها على الإطلاق.

*****

21

الفصل الثاني
الحوار مع أمانار

22

بوخارست

جامعة كارول دافيلا للطب والصيدلة

لم يكن البروفيسور أمانار مجرد رجل أكاديمي آخر، هو رجل عجوز لكنه بمثابة أبقراط في الأهمية للطب فيما يخص علم الأعصاب. بملامح وجهه المُتعَبَة، وشعره الأبيض كالقطن يستقبل كوزمينا في مكتبه مُرحِّبًا كعادته، يتبادلان التِرحاب وكلمات المجاملة التقليدية، ثم يبدأ البروفيسور بالدخول إلى صلب الموضوع كعادته أيضًا:

- لقد اطّلعتُ على التقارير التي أرسلتِها، وأتفهّم تمامًا الحماسة المُفرطة التي تدرجين فيها استنتاجاتِك. لكنني أخشى أنني لا أشاركك تلك الحماسة.

ترد كوزمينا بنبرة هادئة: هل لك أن تشرح لي الأسباب؟

- دكتورة.. أنتِ تعلمين كم أحترمك وأقدّر تلك المكانة الكبيرة التي يملكها العلم في عقلك. لكنك لا بد أن تعلمي أن هذا الطرح ليس جديدًا. نعم، أقر بكون القلب يتمتع باستقلالية فريدة في بنيته العصبية الداخلية، والتي قد يصح تسميتها «العقل الصغير»، والقراءة الأولية لمثل هذا الموضوع مثيرة للاهتمام. لكنك لا بد تعرفين كذلك أن الدكتور أرمور* عندما استخدم مصطلح «عقل صغير» كان من باب المجاز ليس إلا.. وأنه ليس ثمة دلائل مؤكدة تثبت ذلك التأثير المفترض للقلب على سلوك الفرد أو قراراته العقلية كما تدّعين،

---

*د. أندرو أرمور، أحد رواد علم أعصاب القلب، وهو أول من وثّق استقلالية الجهاز العصبي الداخلي للقلب.. بل إن د. أرمور يقول بأن هذا الجهاز يبلغ من التعقيد ليكوّن ما يمكن تسميته بالعقل الصغير في القلب. للدكتور أرمور مؤلفات كثيرة أشهرها «علم أعصاب القلب» الصادر عام 1994. ومن الجدير بالذكر أنه ترجع إمكانية زرع القلب إلى وجود هذا الجهاز العصبي الداخلي الذي يسمح بتشغيل القلب دون الحاجة لأوامر مباشرة للدماغ.

وأن ما يسمى «الذاكرة الخلوية» ليس إلا محض خرافة.

ترد كوزمينا بنبرة منفعلة بعض الشيء هذه المرة: ماذا عن كانديس بيرت*؟ كما أن حالة كلير سيلفيا** لها أكثر من خمسة عشر عامًا، بل إنها نشرت كتابًا تتحدث فيه عن التغيرات السلوكية والعاطفية التي تعرضت لها بعد أن تم زراعة قلب ورئة جديدين لها.

- دكتورة.. أرجوكِ.. دعكِ من ترهات تلك الكتب التجارية، إنها لا تهدف إلى شيء سوى الربح. ومن المفترض ممن هم أمثالنا ألا تنطلي عليهم تلك الحِيَل الرخيصة.

تشعر كوزمينا هنا بالإهانة. وتكرر بنفاد صبر: وكانديس بيرت؟ كانديس بيرت ليست أكثر من دجالة؟!

تقضّب كوزمينا حاجبيها ثم تقول: أنتَ تعلم جيدًا أنني لستُ امرأة عاطفية. ولستُ ممن يُخدعون بالهراء. لقد زودتكَ بالعديد من الحالات كحالة كلير.

ويستمر أمانار في ردوده بهدوء مستفز: كلها حالات ظرفية لا يمكن القياس عليها بشيء. كان ينقصكِ أن تكتبي عن ذلك المعتوه بوشينسكي.

- بوشينسكي؟ من يكون هذا؟

- كان استاذًا في الكيمياء الحيوية في جامعة بوخارست. وكان دائماً ما يشار إليه بالبنان ورجاحة العقل، لكن يبدو أننا لن نعرف الناس أبدًا.

- لماذا؟ ما الذي حصل؟

---

* كانديس بيرت 1946 - 2013، هي متخصصة في علم الأدوية، نشرت أكثر من 250 دراسة وورقة بحث علمي. تشتهر أبحاثها بما يسمى «دواء العقل جسدي» وهو يتحدث عن تأثير القوة الداخلية والتأمل والروحانيات في التحسن من أي مرض. كما أنها أثبتت وجود سلسلة أحماض أمينية كان يُعتقد وجودها حصرًا في الجهاز العصبي المركزي (الدماغ والنخاع الشوكي) في أماكن أخرى من الجسد، خصوصًا الأعضاء الكبيرة كالقلب.

** كلير سيلفيا، صاحبة كتاب «تغيير قلب» الصادر عام 1997، توثق فيه تغييرات في سلوكها وعاطفتها، وادّعت بأن تلك التغييرات تعود لصاحب قلبها الجديد.

- تقول الشائعات بأنه قد قتل أخاه.. وهو الآن مختفٍ ولا أحد يعلم عنه شيئًا.

- وما علاقة هذا بما نتحدث عنه؟

- لقد خضع بوشينسكي لزراعة قلب قبل عام من ارتكابه لجريمة قتل أخيه.

- هل تهزأ بي؟

- لا، لكن كل الدلائل التي أشرتِ إليها ظرفية كحالة بوشينسكي البائس تلك. تخيلي معي دكتورة، لو أنك تجرين لي زراعة للقلب، وتزرعين بداخلي قلب مجرم سفاح، هل أتحوّل إلى سفاح كذلك؟

بدا واضحًا على ملامح كوزمينا بأن كلام البروفيسور يغيظها.

- معك حق. كان يجب أن أوثّق هذه الحالة أيضًا.

ثم تقوم دون أي كلمة إضافية، بينما تترك وراءها البروفيسور أمانار تعلو وجهه ابتسامة نصر.

لم تكن كوزمينا تعني ما قالته عن توثيق حالة بوشينسكي، لكنها، كانت تشعر بالغضب، وكان لكبريائها -نوعًا ما- دور فيما قد يبدو رد اعتبار يدلل على أنها ستستفيض في البحث ولن تتوقف. هي تدرك أن البروفيسور أمانار من المحافظين، وليس من تلك النوعية من الرجال الذين يتقبّلون الأفكار الجديدة بسهولة، وفي الواقع من عساه كذلك؟! لكن ما أثار غيظ كوزمينا لهذه الدرجة هو أنها تعتقد أن البروفيسور أمانار تعمّد أن يسفّه آراءها لكونها امرأة، وهي التي كانت تعتقد أنها تجاوزت تلك النظرة الدونية في مهنتها. وكم بدا ذلك مهينًا! خصوصًا لأنها تنظر بدونية أكبر لذلك الجنس البغيض. لكن يبدو أن هذا أمرٌ لا ينتهي أبدًا مهما بلغ الرجال من التحضر ومهما كان المجتمع متفتحًا كما هو في بلادها رومانيا.

يا لها من كائنات حمقاء! تقول في نفسها.

تصل كوزمينا لمكتبها لتبدأ التحضيرات الأخيرة لمحاضرتها. لكن

كلمات البروفيسور أمانار ما تزال تتردد في أذنيها. ليس كل الحوار، إنما هي بعض الكلمات التي تتردد وكأنها صدى لصوت أمانار البغيض على جدران عقلها، فترتد مرة أخرى: حيل رخيصة.. ظرفية.. معتوه.. بوشينسكي.

أوه بوشينسكي! هذا الاسم الذي بدا لها فجأة وكأن له لمعة كالذهب، نعم، قد يكون بوشينسكي هو الدليل. لربما لا يكون أمرًا مهمًا، لكنني لن أخسر شيئًا لو قمتُ ببعض التحري.

لم تتمكن كوزمينا من التحضير للمحاضرة، فارتجلتها ارتجالاً، وكثيرًا ما تفعل ذلك. ولم تكن تلك مشكلة لديها، فهي تعرف كل شيء عن القلب كما تعرف كفّ يدها، كما يقولون.

انتهت المحاضرة، وعادت كوزمينا إلى مكتبها لا لشيء سوى لتفكّر. كيف لم تسمع عن بوشينسكي من قبل؟ لربما يكون أحد مرضاها وقد نسيت أمره مثلاً؟ لا، لا يمكن أن تنسى اسمًا لمريض لدرجة يبدو فيها وكأنها تسمع به لأول مرة.. لكن، يظل احتمالاً لا بأس به.. لهذا بدأت بالبحث في ملفاتها عن مريض يدعى بوشينسكي، وبما أنها لا تعرف من اسمه سوى هذا المقطع فقد افترضت بأنه اسم العائلة، وبدأت البحث على هذا الأساس. وقد استغلُ هذه الفرصة بينما تغرق كوزمينا في أفكارها، بأن أشرح الخلاف بين ما تحاول كوزمينا إثباته وما يعترض عليه البروفيسور أمانار.

في 29 من أيار عام 1988 خضعت كلير سيلفيا، وهي راقصة باليه، لعملية زراعة قلب ورئة من متبرع ذكر في الـ18 من عمره، بعد تعرّض الأخير لحادث دراجة نارية. بعد تلك الجراحة الناجحة بدأت سيلفيا في ملاحظة بعض التغيرات السلوكية في حياتها، فقد بدأت تتصرف برجولة وتهرول في الشارع بشكل يخالف طبيعتها كراقصة. بل إنها أصبحت تستهلك كميات طعام وبيرة أكثر بشكل ملحوظ. وتراودها أحلام برجل يُدعَى «تيم»، وهي تشعر بأنه صاحب قلبها الأصلي. وفيما بعد تبيّن

أن صاحب قلبها الأصلي يدعى تيم بالفعل. قامت سيلفيا فيما بعد بتوثيق تلك التغيرات في كتاب مذكرات «تغيير قلب» عام 1997*.

وبتطور تقنية زراعة القلب أصبح هناك العديد من الحالات الموثّقة التي تتحدث عن تغيرات مشابهة حدثت لمرضى زُرِعت لهم قلوب جديدة.. مما دعى البعض لتفسيرها بنظريات عديدة، كانت إحداها تسمى «الذاكرة الخلوية».

تفترض الذاكرة الخلوية وجود عقل صغير في كل خلية، وليس فقط القلب، كما أشار د. أندرو أرمور -الذي جاء أمانار على ذكره- وبناءً على أبحاث كانديس بيرت. وعليه فإن التأثير العصبي للعضو يكبر كلما كبر حجم العضو المذكور. وقد يبدو التساؤل البديهي: لماذا القلب؟ فهو ليس العضو الأكبر حجمًا. وهنا تفترض النظرية بأن الأمر لا يقتصر فقط على القلب، بل كل الأعضاء الكبيرة، كالكبد والرئتين والكلية.. لكن يتفاوت تأثيرها بتفاوت حجم العضو. وفي الواقع، تقول بيرت كانديس بأن نقل أي كمية كانت من الخلايا من مخلوق إلى آخر قادر بالفعل على نقل بعض الذكريات كذلك. وظل القلب يحتل مكانة خاصة بداعي أن الحالات المسجلة في التغير السلوكي أكبر من نظيرتها لأي عضو آخر. كما يوجد هناك سؤال مهم فيما يخص هذه النظرية: إذا كانت الذاكرة الخلوية حقيقة، إذن لماذا لا تكون حالات التغير السلوكي أكثر تكرارًا بين مرضى زراعة القلب؟

وهنا، قد اقترح بروس ليبتون** تفسيرًا قد يجيب عن هذا السؤال، وذلك بتطبيق اكتشاف كانديس بيرت فيما يخص المستقبلات العصبية المكتشفة حديثًا في القلب، حيث يقول السيد ليبتون بأن تلك

---

* مقالة «المعرفة من خلال القلب، الذاكرة الخلوية في زراعة القلب» لكيت روث لينتون في «مجلة كلية مونتجومري للعلوم والرياضيات».

** بروس ليبتون، هو عالم أحياء أمريكي حصل عام 2006 على جائزة أفضل كتاب علمي عن كتابه «أحياء الإيمان».

المستقبلات تشكّل ما يشبه المفتاح.. وفي مرضى زراعة القلب يكون هناك زوج من تلك المستقبلات كل واحد ينتمي إلى شخص مختلف، وليس كل جسد يزرع فيه قلب ما يتمكن من التعرّف على القلب الجديد على أنه جديد. ومن الممكن جدًا لبعض الأجساد أن تتمكن من التواصل مع تلك المستقبلات العصبية القلبية، ولكن شيئًا مثل هذا لا بد من أن يكون نادر الحدوث، كما هو في الحالات الموثقة بالفعل.

بكل تأكيد تفسير السيد ليبتون ليس قاطعًا، ويحمل في ذاته هامشًا محترمًا من الخطأ، ولا يوجد تفسير علمي واضح بشكل عام ليضع النظرية ضمن إطارها العلمي الذي يفرضها كحقيقة علمية تُحترم. بينما توجد تفسيرات أخرى لتلك التغيرات.

قدّم بول بيرسال* فرضية أخرى، مفادها أن الأدوية المثبطة للمناعة والتي يتعاطاها المريض بعد الزراعة كي يتقبّل الجسد القلب الجديد، تقوم بتأثير مباشر على الدماغ، لتحفيز قدرته على استدعاء ذكريات دفينة. وعليه فإن تلك التغيرات ليست سوى ذكريات شخصية قديمة للشخص المريض ذاته وقد تمكّن من تذكرها حديثًا.

أما السيد جيمس فان براغ** فقد فسّر الأمر على أنه بسبب كون روح صاحب القلب الأصلي عالقة في هذا العالم، وهي المسؤولة عن تلك التغيّرات. وقد جاء هذا التفسير بعد حادثة شهيرة جاءت مباشرة بعد زراعة قلب لفتاة في الثامنة من عمرها، وكانت صاحبة القلب الأصلي فتاة في العاشرة من عمرها ماتت مقتولة. تعرّضت الفتاة لكوابيس مرعبة عن الرجل الذي قتل صاحبة قلبها الأصلية، رغم أنها

---

*د. بول بيرسال 1942-2007، هو أخصائي في علم مناعة الأعصاب، له 18 مؤلفًا من أفضل الكتب مبيعًا في الطب وعلم النفس.

** جيمس فان براغ، مؤلف أمريكي شهير يصنّف نفسه على أنه وسيط روحاني، له العديد من المؤلفات الشهيرة منها «التحدث إلى الجنة»، ومن الجدير بالذكر أن المسلسل الأمريكي الشهير «Ghost Whisperer» كان مقتبسًا من حياته.

لا تعرفه من قبل ورغم حقيقة أنه ما يزال حرًا طليقًا ولم تتعرف عليه الشرطة بعد. ظل الأمر مستمراً مع الفتاة حتى عرضها ذووها على طبيب نفسي، والذي أكّد أقوال الفتاة وصدّقها، مما دعا أهل الفتاة لاستدعاء الشرطة، الذين ألقوا القبض بالفعل على المجرم بسبب أقوال الفتاة. وقد أكّد الطبيب النفسي بأن أقوال الفتاة عن موعد الجريمة، والسلاح المستخدم، ومكان الجريمة، وملابس القاتل كانت مطابقة تمامًا، بل إن كل ادّعاءات الفتاة كانت صحيحة مائة بالمائة، مما جعله شخصيًا يتوق لإيجاد تفسير لذلك.

تحاول كوزمينا أن تثبت نسخة عقلانية من نظرية الذاكرة الخلوية، ولكن روحانيات بيرت كانديس وجيمس فان براغ تفسد فرصتها وتجعلها عرضةً للسخرية، كما كان مع البروفيسور أمانار. هي تعتقد أنها تملك أدلة على ما يقوله د. أرمور. حيث إنه كان يُعتقد بأن طريق التواصل العصبي بين العقل والقلب أحادي الجانب، أي أن العقل يصدر أوامره إلى القلب وانتهى. بينما يقول د. أرمور بأن ذلك الطريق هو ثنائي الجانب. أي أن الأوامر متبادلة بين العقل والقلب. وعليه فإن أرمور وضع الأسس التي تسمح لأفراد من أمثال كوزمينا لأن يؤمنوا بأن القلب يتحكم بالفعل في الكثير من الأمور التي كان يُعتقد بأن العقل ينفرد بها، كالعاطفة مثلاً. بل إن كوزمينا كانت تقول بأن القلب يتدخل حرفيًا في آلية اتّخاذ قرار ما بشكل مباشر إذا كان يميل لشيء ما. أي أن مقولات كـ«انصت لقلبك» و«القلب وما يريد» تحمل جانبًا لا بأس به من الصحة.

ومما سبق نستطيع أن نتفهم ما أثار حفيظة رجل محافظ كالبروفيسور أمانار من تقارير كوزمينا، التي تدعم نظرية الذاكرة الخلوية، التي

---

* مقالة «المعرفة من خلال القلب، الذاكرة الخلوية في زراعة القلب» لكيت روث لينتون المنشورة في «مجلة كلية مونتجومري للعلوم والرياضيات».

قدتبدو لأمثاله دجلاً، بل خيالاً علميًا في أحسن الحالات.

ها قد أنهت كوزمينا بحثها ولم تجد شيئًا عنه. وبدا لها ذلك غريبًا.. كيف لرجل في مكانة بوشينسكي ألا يسعى لأفضل عناية ممكنة في أمر مماثل لزراعة قلب؟ لِمَ لم يلجأ إليها؟

تحوّلت كلمات البروفيسور أمانار من صدى إلى همس في أذنيّ كوزمينا، وبدا لها أمانار ذاته كقرين شيطاني يوسوس لها بكلمات تدفعها لحافة الجنون. لكنَ كوزمينا ليست من تلك الشخصيات التي قد يدفعها موقف كهذا للجنون. لكن وقع كلمة بوشينسكي ظل محتفظًا ببريقه الذهبي المغري، فتكسر كوزمينا الصمت وتقول: ولِمَ لا؟

*****

٣١

الفصل الثالث
الاستعلام في وسط المدينة

٣٢

بوخارست

جامعة بوخارست

ذهبت كوزمينا لجامعة بوخارست الواقعة في وسط المدينة، واتجهت مباشرة لكلية الكيمياء، ودخلت مكتب سكرتارية عميد الكلية، وبادرت بالسؤال عن بوشينسكي.

- عفوًا.. كنت أبحث عن السيد بوشينسكي.

- بوشينسكي؟ تقصدين جورجي بوشينسكي؟

- أجل، هو بعينه. وتبتسم.

- لا أحد يعلم عنه شيئًا منذ تلك الأخبار عن... عفوًا، من تكونين بالضبط؟

- آه، آسفة. أنا الدكتورة كوزمينا دالكا، أخصائية في أمراض القلب والشرايين، وقد سمعت عن حالة البروفيسور بوشينسكي، وتعلمين كم من الممكن أن يتملك المرء الفضول تجاه حالة فريدة كهذه، خصوصًا أنني أقوم ببحث في حالة مشابهة.

- أها، نعم، لا أدري إن كان باستطاعتي إفادتِك، فأنا جديدة هنا.

لم تقتنع كوزمينا بإجابة السكرتيرة التي بدت متحفّظة. لم تلقِ لها بالاً، وشكرتها ثم ذهبت تتجوّل قليلاً في الكلية. وبينما هي كذلك حتى ناداها من خلفها صوت نسائي به بحة واضحة:

- د. كوزمينا؟

تلتفت كوزمينا، وإذا بفتاة تبدو في العشرينيات من عمرها بيضاء جدًا، وكأنها مصنوعة من الثلج، ممتلئة قليلاً، وعلى وجهها بعض النمش.

- نعم.

- عفوًا.. لقد سمعتكِ رغمًا عني وأنتِ تسألين عن البروفيسور بوشينسكي.

- نعم، هل تعرفينه؟
- أجل، لقد كان استاذي. كان شيئًا مؤسفًا للغاية ما حصل معه.
- حقًا؟ وماذا تعرفين عمّا حصل؟
- لا أعرف الكثير. كل ما أعرفه أن هناك خلافًا عائليًا قد حدث بينه وبين أخيه صلاح. ثم سمعنا بأن صلاح قد قُتِل، وأن البروفيسور بوشينسكي متهم بقتله.
- صلاح؟ اسم أخيه صلاح؟
- نعم، هو كذلك.
- عزيزتي، ما اسمك؟
فتبستم وتجيب: فالكيريا ديمتريسكو.
- حسنًا، يا فالكيريا ديمتريسكو، هل لنا أن نجلس قليلاً وتحدثيني عن بوشينسكي أكثر؟
تبتسم فاليكيريا وتجيب: بكل سرور.
ذهبنا إلى الكافتيريا وطلبنا بعض القهوة، ثم بدأت فالكيريا بالحديث:
لقد كان شخصًا لطيفًا ومغرورًا بعض الشيء، لكنني أعذره. ما زلتُ أذكر جيدًا محاضرتي الأولى معه. كان هذا قبل عامين تقريبًا:
- أنا البروفيسور جورجي بوشينسكي. سأقودكم خلال هذا الفصل في عالم الكيمياء الحيوية. لا تقلقوا؛ لن أصعّب الأمر عليكم أكثر مما هو عليه. يقول هذه العبارة وينهيها بابتسامة عريضة تنضح بالخبث. والآن، سنتحدث قليلاً لمجرد المقدمة. سأسألكم ما أسأله للطلبة في أول محاضرة من كل فصل. هل يستطيع أحدكم أن يخبرني بماذا تتميز الكيمياء الحيوية عن غيرها من العلوم؟ يشير جورجي إلى طالب في الصف الثاني كان رافعًا يده ليجيب:
- لأنها تقدّم تفسيرًا علميًا للوظائف الفسيولوجية التي يؤديها الجسم.
فيرد جورجي: فقط الفسيولوجية منها؟ لا أحد يجيب. يستمر، هل من أحد؟

- ماذا عن الحب؟ تتساءل طالبة تجلس في الصف الأول.
- ماذا قلتِ؟
- الحب.. أقصد الحالة النفسية للإنسان.
- مثير للاهتمام، ما رأيكم في سؤال زميلتكم؟ هل عند الكيمياء الحيوية ما يفسر الحب؟ أو فلنقل هل عند الكيمياء الحيوية ما يفسّر علم النفس، وليكن الحب مثالاً عليه؟ ويتوجه إلى ذات الفتاة فيسألها: أنتِ ما رأيك؟

فتجيب: الحب شيء مميز، أعلم أن الجسد يعبّر عن الحب بإفراز مواد كيميائية في الدماغ، لكنني لا أعتقد أنه يستطيع أن يفسّر لنا لماذا نحب فلانًا أو نكره آخر.. فالحب أمر لا يمكن تفسيره.

يجيبها جورجي ساخرًا: أوووه! يبدو أنك من متابعي «عَشقي ممنوعي»*. يضحك الحضور. فيكمل البروفيسور كلامه وقد بدا مزهواً وهو يتابع: من الوهم أن نظن أن الحب أمر مميز، ومن السذاجة أن نصدق ما يعرضونه من تلك الحكايات السخيفة وذلك الكم الهائل من الترهات التي يحشونها في عقولكم.

يسكت البروفيسور للحظة وهو ينظر مباشرة في عيني تلك الفتاة ثم يتابع: إن القلب هو من يختار وغيرها من ذلك الكلام الفارغ. دعوني أشرح لكم علميًا خلال الدقائق القليلة القادمة ذلك الشعور الذي يسمونه بالحب. ثم يبدأ البروفيسور بالشرح:

تتحدث هيلين فيشر من جامعة روتجرز في الولايات المتحدة عن ثلاث مراحل للحب: الشهوة، الإعجاب، ثم الارتباط.

أما عن الشهوة: فهي أول مرحلة، ومن غير الممكن تجاوزها إلى المراحل التالية، أي أنه ليس ثمّة وجود للحب الأفلاطوني وغيره من

---

* المسلسل التركي الشهير «العشق الممنوع» تم عرضه على قناة «كنال دي» الرومانية، والمملوكة لعملاق الإعلام التركي أيدن دوغان.

تلك الأساطير.

ويعيد تركيز نظره مجددًا في عيني تلك الفتاة، ثم يتابع بابتسامة خفيفة: وهي تنساق من خلال الهرمونات الجنسية «تستوستيرون» و«أستروجين». تكفينا نظرة لفتاة مثيرة حتى تزداد نسبة التستوستيرون. وقد نقوم بفعل ما يعزز فرصنا مع تلك الفتاة أو ننصرف.

أما عن الإعجاب: فتلك الفترة الرائعة في الحب. هي التي تجعلك شغوفًا.. لا تملك أن تفكر في شيء آخر. وأكاد أجزم أنها تلك التي يُبدع فيها الشعراء، ويصدح فيها أصحاب الصوت العذب بالغناء. هناك ثلاث نواقل عصبية مسؤولة عن هذه المرحلة:

«أدرينالين»: في الفترات الأولى التي تشعر فيها بمشاعر تجاه أحد ما.. تفعّل نظام الجملة العصبية الودية في الجسم. فتزيد تركيز الأدرينالين والكورتيزول. وهي المسؤولة عن ذلك الشعور السحري الذي تشعر به عند لقاء الحبيب، التعرق، زيادة ضربات القلب وجفاف الحلق. أعراض مألوفة، أليس كذلك؟ ثم ينظر إلى التلاميذ بابتسامة خبيثة وهؤلاء يبتسمون ويتبادلون النظر فيما بينهم.

تؤكد هيلين فيشر وجود كميات كبيرة من «دوبامين» في عقول المحبين. وهذا الناقل العصبي ينشط آلية الرغبة والمكافأة، بتفعيل تأثير فوري عميق من المتعة. وهو يطابق ذلك التأثير الذي يعطيه تعاطي الكوكايين بالضبط.

ويرافق هذه المرحلة زيادة في الطاقة، قلة الحاجة للنوم أو الطعام، تركيز الانتباه، والسعادة الغامرة بأقل تفاصيل هذه العلاقة المثالية. يسكت قليلاً، ثم يقول: في المرة القادمة التي تشعرون فيها بتلك النشوة تذكروا كلماتي هذه.

وأخيرًا «سيروتونين». أحد أهم المواد الكيميائية في الحب وهو الذي يفسر لماذا يظل الحبيب في طلته الدائمة في أفكارك.

والآن، يكمن السؤال المهم: هل يغير الحب طريقة تفكيرك؟ هناك

تجارب في بيزا بإيطاليا تثبت أن الحب فعلاً يغيّر الطريقة التي تفكر بها. د. دوناتيلا مارازيتي، أخصائية في علم النفس أثبتت وجود نقص في مستويات «سيروتونين» في الدماغ عند المحبين مشابهة لتلك الموجودة عند مرضى الوسواس القهري. وهنا نلاحظ ترسخ ذلك الوهم السائد لدى المحبين بأن علاقتهم هي الأقرب والأعظم من أي علاقة حب أخرى في الدنيا، وهذا بطبيعة الحال يساعد على الوصول إلى المرحلة التالية، الارتباط. ومن هنا نستنتج أن تلك الأساطير صدقت في أمر ما بالنهاية، أن الحب مرض.

أما عن الارتباط: فهي الرابطة التي تحرص على بقاء المحبَّيْن معًا بما يكفي لِيُنجِبا. وهنا يوجد هرمونان مهمان، «أوكسيتوسين» و«فاسوبريسين».

الأوكسيتوسين: هو هرمون يتم إفرازه أثناء النشوة الجنسية، وهو يعمّق الشعور بالارتباط بين الطرفين ويقرّب بينهما كذلك فيما بعد انتهاء العلاقة الجنسية. وتقول النظرية إنه كلما زادت ممارسة الجنس بين الطرفين تعمقت العلاقة بينهما. ولا ننسى طبعًا دور هذا الهرمون في تكوين علاقة الأمومة مع الطفل القادم.

واحزروا ماذا؟ لقد أجروا تجارب على الفئران وقطعوا تدفق هذا الهرمون عندها وعندما أنجبت الفئران لم تتقبل الأم أطفالها. أي أن عاطفة الأمومة لديها انعدمت بسبب حرمانها من هذا الهرمون.

الفاسوبريسين: هو هرمون آخر مهم يتم إفرازه بعد العملية الجنسية. وهو الذي يسمى أيضًا بـ«الهرمون المضاد للإدرار»، يعمل مع الكُلْية للتحكم في العطش. ويملك دورًا عظيمًا في العلاقات الطويلة الأمد. وتقول النظرية إنه إذا نقص تركيز هذا الهرمون فإن العلاقة ستفتر، بل من الممكن أن نذهب بعيدًا فنقول إنه سيقل دفاع الطرفين عن العلاقة إذا ما دخل طرف ثالث بينهما.

ثم يوجّه كلامه مرة أخرى لتلك الطالبة، فيقول:

قد طرحتِ تساؤلاً مشروعًا بأنه ما الذي يجعلنا نحب فلانًا ونكره آخر، وهنا سأجيبك بأن أقول لربما رأيتِ فلانًا وقطعتِ معه شوطًا أسبق قليلاً من الآخر.

تعلو علامات الدهشة وجوه الطلبة فيقول: تجيب الدكتورة فيشر عن السؤال المهم: كيف نقع في الحب؟

أن نجد طرفًا من الجنس الآخر غريبًا عنا كليةً. ثم نتحدث معه عن حياتنا لمدة لا تتجاوز ثلاثين دقيقة. بعدها ننظر عميقًا في عينيّ بعضنا البعض دون كلام لأربع دقائق أخرى.

ثم انتهى الأمر.. وقعنا للتو في الحب.

وللمفاجأة، إن ما أخبرتكم به للتو حقيقة علمية!

هذا هو كل ما يتغنّى فيه الشعراء والأدباء. هو مجرد غريزة بدائية تقودها عملية كيميائية هدفها التكاثر والحفاظ على الجنس البشري وحسب.. ولا القلب ولا الأرواح لها يد فيها. هذا إن افترضتُ مجازًا وجود ما يسمى بالأرواح.

إن الشهوة هي طريقة الطبيعة لتجذبنا للجنس الآخر، والحب هو طريقتها لضمان الاستقرار بما يكفي للتكاثر، وبالتالي استمرار النوع البشري.

إن الآلية العضبية المسؤولة عن التكاثر عندنا كبشر ما زالت على بدائيتها.. ومن المدهش أنها لم تتطور كبقية الآليات العصبية الأخرى لدى الإنسان. وهذا يقودني للقول إن الطبيعة تعمل بميكانيكية ماكرة، فجعلت آلية التكاثر عندنا بدائية وذات جاذبية عالية جدًا، وهذا ما يجعلنا مقبلين عليها دونما قدرة تُذْكر على المقاومة. تخيلوا معي لو كان الإنسان يتكاثر لا جنسيًا. فأين المتعة في ذلك؟!

فيضحك، ويضحك الجميع.

يا أعزائي.. إن الإيمان بالحب تمامًا كالإيمان بالله.. مجرد هراء.

مرة أخرى.. أنا البروفيسور جورجي بوشينسكي وأنا منذ هذه اللحظة

رب الكيمياء بالنسبة إليكم. وسأحاول بمقدرتي أن أنقل لكم ما يقوله الإله الذي يستحق أن يُعبَد بحق، العلم، ذلك النور الذي أنار الحضارة البشرية والذي أوصلنا إلى ما نحن عليه اليوم من تطور. بإمكانكم الانصراف؛ انتهت المحاضرة.

- أرى أنه كان وغدًا حقيقيًا.

تعلّق كوزمينا. فتضحك فالكيريا ثم تقول: على الإطلاق، أخبرتك أنه مغرور بعض الشيء. لكن لا بأس به. لا بأس به على الإطلاق.

كان وجه فالكيريا مشرقًا يمتلئ بما يمكن لنا أن نسميها علامات إعجاب واضحة باستاذها السابق.. والمجرم الحالي الفار من العدالة.

- لستِ في حاجة لأن تقولي بأنكِ كنتِ تلك الفتاة التي استفزته يومها، أليس كذلك؟

فتضحك فالكيريا ملء شدقيها.

- أجل، أقر وأعترف بأنه أنا. لكن، من الصعب علينا نحن الفتيات أن ننجرف وراء اعتقاد كاعتقاد بروفيسور بوشينسكي في الحب. ألا توافقينني؟

- ربما.

تجيبها كوزمينا ببرود. فتندفع فالكيريا وراء سؤال آخر: ماذا عن الله؟ هل الإيمان به محض هراء كذلك؟

تنظر كوزمينا مليًا إلى عيني فالكيريا الجميلتين ثم تذهب بعينيها إلى النافذة المقابلة حيث كانت تطل على ساحة الجامعة الجانبية، وفوقها السماء الزرقاء التي تتخللها بعض الغيوم وقد حجبت أشعة الشمس بشكل جزئي، وتقول بعد لحظات من تركيز نظرها إلى تلك السماء عبر النافذة: لستُ أدري إن كان ثمة من ينظر إليّ الآن ليعرف إن كنتُ أؤمن بوجوده أم لا. لكنني لستُ أرى أن الإيمان به هراء.

فتعقّب فالكيريا: أما أنا فأؤمن به وبالعذراء وطفلها المسيح مُخلّص البشرية. ورغم أنني لا أذهب للكنيسة حتى في أيام الآحاد لكنني أشعر بالأمان بوجود أحد ما يعتني بي من مكانه في الأعلى.

وتضع يدها على صدرها لتبرز سلسلة ذهبية في طرفها صليب عليه المسيح مصلوبًا، وتقرّبه من شفتيها فتُقبّله.

- حسنًا.. هل تعلمين شيئًا عن عملية زراعة القلب؟

- أجل، سمعت عن ذلك.

- جميل، هل تغيّر؟ أقصد هل لاحظتِ عليه بعض التغيرات بعد زراعة القلب؟

نعم، بدا شديد الارتباك، مهزوزًا بعض الشيء.

لم يكن هذا كافيًا لكوزمينا.

- وبعد؟

- لا شيء. هذا كل ما لديّ الآن.. لا لا تذكرت، بدت طريقته في الحديث مضحكة بعض الشيء، وبدت لكنة تظهر فيها وكأنه أجنبي.

تهزّ كوزمينا رأسها بحركة ليست تعني شيئًا. ثم تقول: حسنًا، إن تذكرتِ شيئًا اتصلي بي.

ثم تناولها بطاقةً عليها عنوانها ورقم هاتفها وبريدها الإلكتروني.

- سأفعل بالتأكيد.

وما أن أدارت كوزمينا ظهرها لترحل حتى نادتها فالكيريا وقالت: للمناسبة، أنا هنا اليوم من باب المصادفة، لكنك حتمًا ستجدين الكثير ممن قد يفيدونكِ في بحثك عن بوشينسكي في كلية الكيمياء التي تقع في جادة باندوري غرب بوخارست. حتى تلك المحاضرة التي حدثتُكِ عنها كانت هناك. شكرتها كوزمينا بلطف ثم رحلت*.

قامت كوزمينا بالبحث عن طريق الإنترنت لتجد مقالاً يتحدث عن جريمة القتل، والضحية هي صلاح كما قالت فالكيريا، وهو الأخ الأكبر لبوشينسكي. أي اسم هو هذا «صلاح»؟ قالت في نفسها.. ثم قامت

---

*لجامعة بوخارست مجمعان من المرافق، يقع الأول في وسط المدينة، والثاني في جادة باندوري في غرب المدينة.

ببحث عن أصل الاسم. لتجد أنه كلمة عربية وتأتي بمعنى الدعاء أو العبادة، وهي بالنسبة للمسلمين ترمز إلى تلك العبادة الإلزامية في دينهم، الصلاة. ومن الواضح أن الأمر قد التبس على كوزمينا فأخطأت في كتابة الكلمة من Salah إلى Salat وذلك لأن اللفظ مشابه بالنسبة لمن لا تكون العربية له اللغة الأم، وعندما وجدت الكلمة في نهايتها T لم تتعجب، بل افترضت كونها غير ملفوظة، فيكون اللفظ عندها «سالا»، تمامًا كما لفظتها فالكيريا. إذن هي كلمة عربية، وما الذي يجعل اسم أخ بوشينسكي عربيًا؟ تساءلت كوزمينا في نفسها.

تفاصيل الجريمة مرعبة، فالمقال يتحدث عن تشويه الضحية ومن ثمّ حرقها. وبينما هي تقرأ كانت الكثير من الشكوك تساور عقلها فيما إن كانت تلك الجريمة بسبب التأثير السلوكي لزراعة القلب. وتساءلت في نفسها: أي قلب عساك قد حصلت عليه يا جورجي البائس؟!

أعادت كوزمينا في عقلها أحداث اليوم، وأقرت بخيبة أمل من أنها لم تُوفّق. لذا عقدت العزم على أن تعاود الكَرّة في الغد في باندوري كما أشارت عليها فالكيريا. فتناولت هاتفها وأجرت مكالمة هاتفية مع المشفى في كونستانتسا لتعلمهم بحدوث مستجدات وأنها لن تأتي غداً. ثم خرجت من مكتبها باتجاه فندق قريب لتحجز لنفسها غرفة تبيت فيها، فيبدو أن حاجتها في بوخارست ستستغرق بعض الوقت.

*****

الفصل الرابع
الاستعلام في باندوري

جامعة بوخارست

مقابلة د. توروك

في اليـوم التـالي، تعـود كوزمينـا مـرة أخـرى لجامعـة بوخارسـت إنمـا في جـادة بانـدوري، وتتجـوّل فيهـا قاصـدة كليـة الكيميـاء، حيـث إنهـا قـررت أن تسـأل الزمـلاء السـابقين لبوشينسـكي علّهـا وجـدت عندهـم مـا يثـير الاهتمـام.

كان أول مكتـب أمامهـا هـو مكتـب د. ريجينـا ووجدتـه مفتوحًـا عـلى مصراعيـه.. وكانـت ريجينـا تستند عـلى المكتـب بهيئـة توحـي وكأنهـا كانـت تتحـاور مـع أحـد مـا معهـا في المكتـب، ومـا أن رأتهـا حـتى ابتسـمت وكأنهـا كانـت تنتظـر قدومهـا.

قالت كوزمينا بتردد: د. ريجينا؟

- نعم، وأنتِ التي تسألين عن بوشينسكي أليس كذلك؟

تعـود الثقـة قليلاً إلى نفس كوزمينـا بعـد أن اسـتنتجت أن تلـك السـكرتيرة قـد ثرثـرت قليـلاً عـن زيارتهـا بالأمـس. وقالـت: نعـم، أنـا هـي. ثـم تقدمـت لتجـد رجـلاً يبـدو في الخمسـينيات مـن عمـره، ذقنـه طويلـة بشـكل ملحـوظ لدرجـة أن بقعًـا مـن بيـاض الشـيب يمكـن تمييزهـا بسـهولة. كان يرتـدي لباسًـا رسميًا من بذلـة بنيـة أنيقـة بـدا لهـا رجـلاً جذابًـا لا بـأس بـه. دخلـت كوزمينـا وتبادلـت التحيـة معهمـا وقالـت: أرى أن السـكرتيرة قـد حدّثـت البعـض عـن زيـارتي بالأمـس.

فـترد ريجينـا: في الواقـع حدثتـني فالكيريـا عمـا حـدث معـكِ هنـاك بالأمـس، فهـي طالبـة عنـدي. أمـا عـن تلـك -تقصـد السـكرتيرة- لا عليـكِ منهـا؛ إنهـا فتـاة حمقـاء، رغـم كل التحريـات العديـدة وكل هـؤلاء الذيـن جـاؤوا هنـا للسـؤال عـن بوشينسـكي مـا تـزال ترتـاب وترتبـك كالمذنبـة في كل مـرة. تفضـلي بالجلـوس.

تجلس كوزمينا وتترك عينيها تجولان قليلاً فيما حولها. بينما يحاول الرجل الاستئذان للانصراف، لكن ريجينا توقفه قائلة: إلى أين؟ لا بد من أن لديك ما تفيد الآنسة به عن بوشينسكي.

فيحمرّ وجهه ثم يقول: نعم، لمَ لا؟

فتتابع ريجينا بودّ: هذا زميلي هاجي*.. محاضر لدينا في علم الأحياء.

تبتسم كوزمينا من باب المجاملة وتقول: تشرفت بك.

فيرد هاجي: أنا أكثر.

وتُعرّف كوزمينا نفسها وتفسّر لهما اهتمامها بالموضوع. ثم تبدأ الحديث المهم بالنسبة إليها: ما الذي حدث مع بوشينسكي؟

تجيب ريجينا: لا أكثر مما سمعتِ، هو مُتّهم بتلك الحادثة المأساوية بقتل أخيه. لم ترق هذه الإجابة المقتضبة لكوزمينا: لقد سمعتُ أكثر من ذلك؛ بأنه فارٌّ من العدالة.

يجيبها هاجي: صحيح، لكننا لا نعلم أكثر مما هو منشور عنه هنا وهناك. ويُسهِب: قبل نحو عام ونصف خضع لجراحة زراعة القلب، وبعدها بستة أشهر عاد إلى التدريس في الجامعة، وما هي إلا بضعة أشهر إضافية حتى اختفى. ثم سمعنا بكل ما تسمعينه عنه الآن.

- حسنًا، كيف كان عندما عاد للتدريس؟ هل بدا مختلفًا؟

تجيب ريجينا: بدت طريقة حديثه مختلفة، حتى أن بها لكنة غريبة وكأنه أجنبي.

صمتت كوزمينا تنتظر المزيد، وعندما لم تسمع منهما كلمة إضافية قالت: وبعد؟

أجابت ريجينا: لا شيء. لا تتوقعي أن تجدي عندنا أنا وهاجي المزيد، لم نكن مقرّبَيْن له.

فقالت كوزمينا بتعجب: توقعت غير ذلك بإبقائك إياه، مشيرة

---

*هاجي اسم روماني، وهو تحوير لكلمة «حجي» بالعربية، وبالعادة يختص مسلمو رومانيا به.

لهاجي. وبدت لهجتها مستفزة بعض الشيء وقد تعمّدت ذلك.
فأجاب هاجي: بقيتُ بداعي المجاملة ليس إلا. ولم تدافع ريجينا عن موقفها أبدًا.
شكرتهما كوزمينا على وقتهما ثم وقفت لتنصرف.. حتى أوقفتها ريجينا قائلة: لكِ أن تُعرّجي على د. توروك في قسم علم النفس.. فهو صديقه.
ذهبت كوزمينا مباشرة إلى مكتب د. توروك لتجده مغلقًا، لربما هو في محاضرة أو ما شابه. فذهبت إلى المكتبة لساعة كي تمضي الوقت بشيء مفيد.. لكن لسوء حظها وجدتها مغلقة للصيانة. فرجعت أدراجها ويغالبها الظن بأنها لن تجده.
لذا دقّت الباب، وفي بالها أنه ما زال مغلقًا، فحاولت فتح الباب بقوة أكبر قليلاً مما يفترض لها، ولكنه كان مفتوحًا هذه المرة. فأجفل دخولها المباغت د. توروك، مما أوقع كوزمينا في حرج شديد، وطفقت تعتذر عن تصرفها الأخرق، لكن د. توروك أجابها مازحًا: لا عليكِ عزيزتي.. إن دخول امرأة فاتنة مثلك على مكتب رجل مثلي لقادر على إحداث تأثير الصاعقة، حتى لو كان دخولاً بشكل أكثر رقة.
- نعم، يحدث أن يكون لي مثل هذا التأثير.
فيضحك د. توروك ملء شدقيه.. فتسلّم عليه مُعرِّفةً نفسها: د. كوزمينا دالكا. فيبتسم توروك عندما يفهم ما عنته كوزمينا، حيث لا يمكن إخفاء المفارقة اللغوية هنا، كون كلمة «دالكا» تعني بالرومانية صاعقة. تجلس كوزمينا وتشرح سبب وجودها هنا، وتنتهي بالسؤال المعتاد: ما الذي حصل؟
اقترب توروك بجذعه إلى المكتب وشبك يديه تحت ذقنه ناظرًا إلى نقطة وهمية وسط المكتب، ثم قال: لقد كان بوشينسكي صديقي ولم يكن زميلاً وحسب. ما حصل هو شيء لا بد من أنك تعرفينه بالفعل. لكن أريد أن أؤكد لك أنه بريء تمامًا من كل تلك الأشياء الشنيعة

التي نُسبت له. إن رجلاً كجورجي لا يمكن أن يكون عنيفًا بأي حال من الأحوال. يمكن لهم أن يقولوا ما يشاؤون، ويمكن لهم أن يدّسوا ما تسنّى لهم من أدلة. لكن أحدًا لن يتمكن من أن يقنعني بأن جورجي الذي أعرفه يقدر أن يصطاد غزالاً بريًا، فما بالك بأن يقتل أخاه؟ وبمثل تلك الطريقة البشعة؟ استحالة.. أقول لكِ استحالة.

تحاول كوزمينا تهدئته ثم تعيد صياغة السؤال: أخبرني عنه أولاً، كيف يكون هو؟ وهل تغيّر بعد زراعة القلب؟ فأجابها: هو رجل ذكي، واثق في نفسه. تعلمين أنه كان في أوائل الأربعينيات من عمره، مميز بلونه الأسمر، وهذا أمر ورثه عن والده العربي بودي بوشينسكي. وبودي هذا أتى لأول مرة لرومانيا في أواخر الستينيات من الألفية الماضية لغاية دراسة الطب، وتعرّف على إيلين بوشينسكي زميلته في الكلية، وهي ابنة عضو الحزب الشيوعي الروماني والرجل القوي بيوتر بوشينسكي، وكما تعلمين الانضمام للحزب كان فرصة وخطوة مهمة لكل من يريد أن يكون شيئًا ما في هذا البلد. فتقول كوزمينا في نفسها: أعلم ذلك جيدًا. كان بيوتر بوشينسكي من أصول بولندية، ويقال بأنه كان جنديًا ألمانيًا سابقًا وقدم مع الجيش الألماني الغازي*. ولفرط حب رفاقه الرومان له أخفوا هويته الألمانية وجعلوه منهم، بل أنهم ادّعوا بأنه كان من المقاومة الشيوعية الرومانية مع الرفيق تشاوتشسكو. لم يطل الأمر حتى انخرط بيوتر في السياسة.. وكان مما لا بد منه أن ينضم للحزب الشيوعي ليفعل ذلك، وكي يكتمل وهم الهوية الرومانية الشيوعية عليه. لكنه لم يغيّر اسمه على الإطلاق، ورفض بشكل قاطع كل المحاولات لإقناعه بذلك. ولربما قد أفاده أن الاسم كان بولنديًا، وكانت شهادات

---

* حارب الكثير من البولنديين في صفوف الجيش الألماني في الحرب العالمية الثانية، وذلك إما لانتمائهم بشكل مباشر للأمة الألمانية أو لإيمانهم بالفكر النازي، ولا يوجد ما يشير إلى كون بيوتر كان مؤمنًا بالفكر النازي.

رفاقه قد دفعت عنه الشكوك، إلى أن تلاشت كل تلك الشبهات بعد انخراطه في السياسة وإثباته ولائه المطلق للحزب وللجنرال تشاوتشسكو الذي كان يكنّ له الودّ. ارتقى بيوتر كثيرًا خلال السنين حتى تقلّد منصبًا مرموقًا ضمن قيادات الحزب، حتى أنه كان صديقًا شخصيًا لفاسيلي ميليا*.

تصاحب بودي وإلين وحملت إلين بالأخ الأكبر لجورجي، صلاح، دون زواج، مما دعا بيوتر للتدخل، ورغم أنه لم يكن راضيًا عن علاقة ابنته ببودي إلا أنه كان رجلاً عقلانيًا ويحب ابنته كثيرًا، فبارك علاقتهما بشرط أن يتزوجا، فهو لن يرضى بأن يكون أول حفيد لرجل مرموق من أمثاله غير شرعي.

بعد الزواج أنجبت إلين ابنها الأول صلاح، وقد سمّاه بودي صلاح لأنه لم يزل متأثرًا بأصوله.. ولم يكن قد استوعب الفائدة الكبيرة التي من الممكن أن يحصل عليها.

كان بودي -اسمه الأصلي عبد الله- رجلاً انتهازيًا، استفاد كثيرًا من صلات بيوتر، ولكي يندمج في المجتمع الروماني قام بتحوير اسمه من عبد الله إلى بودي، رغم أنه بقي في السجلات الرسمية كما هو، لكنه غيّر اسمه الأخير قانونيًا إلى بوشينسكي بمساعدة حماه بالطبع. ولم تكن ثمّة مشكلة أبدًا تمنعه من الحصول على امتيازات خاصة بعد تخرجه، فحصل على الامتياز.. وأكمل هو وإيلين دراستهما، فتخصص بودي بالعظام بينما تخصصت إيلين في أمراض النساء.

وبدا شابًا ذا مستقبل واعد للغاية. كانت الحال أكثر من ممتازة، إلى عام 1989 عندما قامت الثورة. فتسأل كوزمينا: ماذا عن أهل بودي؟ ألم يذهب لزيارتهم؟ تتساءل كوزمينا.

فيجيبها توروك: كان بودي يتيم الأم، وبعد أربعة أعوام من وجوده

---

* فاسيلي ميليا 1927-1989، آخر وزير دفاع في فترة الحكم الشيوعي لرومانيا.

في بوخارست توفي والده، لهذا كانت إيلين مهمة جدًا لبودي، فلولاها لما استطاع أن يكمل دراسته.

- كيف كانت علاقة د. جورجي بأخيه؟

- كان صلاح يغار من جورجي كثيرًا.. وفي الواقع كان والداه يحبان جورجي أكثر ويعمدان إلى تدليله، بينما نال صلاح تربية صارمة كونه الابن الأكبر.

يمد توروك يديه إلى سخّان الماء ويسأل كوزمينا: هل تشاركيني ببعض الشاي؟ ويسهب: كنتُ أود لو كان نبيذًا أو شيئًا أقوى، لكن كما ترين لا نودّ أن نكون قدوة سيئة بما أننا في الجامعة. ألا توافقينني؟

تبتسم كوزمينا وتقول: يبدو الشاي فكرة جيدة. فيسكب توروك بعض الشاي له ولها.

ثم يستأنف حديثه: لقد توقف جورجي عن التدخين. وفي البداية توقعتُ أنه فعل ذلك بسبب كل ما تعرّض له وانصياعًا منه للنصائح الطبية بالامتناع عنه، لكن الغريب في الأمر إنه برر لي توقفه عن التدخين بأنه عادة مقرفة.

- لم أسمع من قبل أنه كان مدخنًا.

- صحيح، لأنه نادرًا ما كان يدخّن أمام أحد سواي وماريا.

- ماريا؟

- نعم، ماريا فادوفا. هي زميلتي هنا في القسم، وهي أيضًا صديقته.

- كان بوشينسكي على علاقة وطيدة بعلم النفس.ويضحك ضحكة ساخرة -تقريبًا-. يفرغ كوب الشاي في فمه وكأنه جرعة من الويسكي. ثم يتابع حديثه: كان جورجي يناقض العادات السائدة لدى المدخنين، فهو لا يدخن لعادة ولا يزيد إسرافًا في التدخين مع التوتر، بل هو يُدخّن كمن يحتسي النبيذ.. كان يتلذذ به. تستطيعين القول بأنه لم يكن مدمنًا عليه بالمعنى العلمي للكلمة، لكنه كان مرتبطًا لديه باللذة والمتعة، ولذلك تعجبت منه عندما أخبرني بأنه عادة مقرفة.

تقول كوزمينا: هل من تغيرات أخرى؟

- أجل، تلك اللكنة السخيفة، وذلك الولع العجيب والمفاجئ بكتب التاريخ والأدب. لم يكن جورجي من قبل ذوّاقًا للأدب الشاعري، فقد كان ينظر للحب من علٍ، وفجأة بدأ بسرد مقاطع لبوشكين وجونة وحتى أولئك الرومانسيين الفرنسيين كإيلوار. وما أثار دهشتي أنه أنكر قراءته لهم وأنه لا يدري ما هو مصدرها في ذاكرته؟ وكان يقول إن هناك من دسّها دسًا في عقله. بدا الأمر مثيرًا لاهتمامي -إن صح القول- لاعتبارات مهنية.. نعم، هو صديق عزيز، لكن لا أنكر الاهتمام المهني مني في هذه التغيرات. كنتُ أظن أنه سيفقد تلك الأشياء مع الزمن، لكنه توجه بعدها إلى التاريخ، فبدأ يقرأ عن تاريخ رومانيا وخصوصًا إمارة والاشيا، ويهذي بأشياء عن الأمير فلاد الثالث، وأخيه رادو الوسيم.

تتعجب كوزمينا، لكن توروك لم يترك لها هامشًا زمنيًا كي تهضم ما سمعته لتوّها، فقال: معذرةً؛ لديّ محاضرة الآن، عليكِ أن تتحدثي مع ماريا.. لابد، ستفيدك أكثر مني. إنها ليست موجودة اليوم، هاكِ عنوانها أو يمكنكِ أن تأتي إلى هنا في الغد.

ثم يتذكر أن غدًا هو السبت: أوه غدًا السبت! إذن يمكنك الاتصال بها وزيارتها في منزلها أو أن تأتي إلى هنا يوم الإثنين.

فتقول كوزمينا: أعتقد بأننا يمكن أن نتناقش أكثر فيما يخص ذلك، فقد أتمكن من مساعدتك على فهم بعض الأمور.

ينظر توروك إليها باهتمام، ثم يقول: أجل، بالطبع. نستطيع أن نلتقي غدًا إن شئتِ.. إن رجلاً مثلي لا يملك حياة خاصة ولا ضير من قضاء السبت مع فتاة مثلك.. هو أكثر من إطراء بالنسبة إليّ.

تتبسم كوزمينا وتقول في نفسها: تقليدي. ثم تشكره وتهمّ بالرحيل، ثم ترجع لتقول: لم تقل لي أين ومتى لقاؤنا غدًا؟ أجابها دون تردد: ساحة قوس النصر، الساعة سادسة مساءً.

- دكتور، هو ليس موعدًا غراميًا. أليس كذلك؟

يبتسم تـوروك ويقـول: أوه عزيـزتي! وهـل يتوجّـب عـلى المـرء أن يخـرج في موعـد غرامي كي يسـتمتع بجمـال باريـس الـشرق*؟

تقول كوزمينا في نفسها: هذا الأحمق يتودد إليّ!

ومـن سيارتها حاولـت كوزمينـا الاتصـال بماريـا الـتي لـم تجـب. وعندمـا لـم تجـد كوزمينـا مـا تفعلـه لمعـت في بالهـا فكـرة، فقـررت الذهـاب إلى المتحـف الوطـني للفنـون والتاريـخ.

*****

* هي مفارقة شائعة لوجود قوس للنصر في بوخارست مشابه لذلك الموجود في باريس.

٥٣

٥٤

الفصل الخامس
المتحف

المتحف الوطني للفنون والتاريخ

كان مشرف المتحف جالسًا في مكتبه الأنيق، يقوم ببعض الأعمال المكتبية، عندما دُقّ الباب فنادى بالدخول لمن بالباب. وعندما دخلت كوزمينا قال لها مباشرة: إن مشرفي السياح في الطرقة إلى اليمين. لكنها صححت له مفهومه الخاطئ عنها بأنها ليست سائحة وأن لديها بعض الأسئلة فيما يخص فلاد الثالث. انبسطت ملامح المشرف وقال في نفسه: أجل، كسر للروتين الممل. وعرض عليها الجلوس وبعض القهوة ثم بدأ بكل ود بالسرد.

- لا بد أنك كما كل شخص في هذه الدنيا قد سمع عن فلاد الثالث.

تتعجب كوزمينا. ويبتسم المشرف مزهوًا بنفسه ليقول: دراكولا، أو فلاد دراكول، والشهير بفلاد تيبيش بالرومانية، وتعني «المخوزِق»، وذلك لكونه من ابتكر تلك الطريقة في تعذيب ضحاياه. بينما كان لقب دراكول لقبًا ورثه عن والده، وهي كلمة من مقطعين في الرومانية القديمة تعني «ابن التنين»، والتنين هنا هو إشارة لحركة التنين التي أنشأتها الكنيسة الشرقية لمحاربة الدولة العثمانية، وكان والد فلاد الملك فلاد الثاني عضوًا فيها.

تُعقّب كوزمينا: إذن رواية ستوكر كانت عن شخصية حقيقية؟

- نعم، كانت رواية برام ستوكر* سبب شهرة هذا الاسم. لكنها، تسببت في تشويه صورة هذا الأمير من بطل للقومية الرومانية والبلغارية إلى مصاص للدماء.

لا تُعلّق كوزمينا، إنما تتابع الاستماع بصمت. وقد أثار صمتها هذا

---

*برام ستوكر 1847-1912، روائي وقاص آيرلندي، وهو صاحب رواية «دراكولا» الشهيرة الصادرة عام 1897.

المشرف، فسألها: ألستِ رومانية؟ فأنتِ تتحدثين الرومانية بطلاقة.

تجيبه كوزمينا وقد شعرت بالقليل من الحرج: نعم، أنا رومانية، لكنني عشتُ فترة طويلة في الخارج.

يومئ المشرف برأسه ويقول: بالطبع. ثم يكمل حديثه: كان فلاد الثالث ابنًا للأمير فلاد الثاني أمير والاشيا، التي كانت تعيش أحلك أيامها في بداية سطوة الدولة العثمانية على البلقان. كان فلاد الثاني يتعرض لمؤامرات عديدة من نبلاء والاشيا، الذين كان يُطلَق عليهم لقب «بويار»، وبالفعل نجح النبلاء المدعومون من ملك المجر بتنحية فلاد الثاني والاستيلاء على الحكم. لكن مراد الثاني سلطان الدولة العثمانية وجد في ذلك فرصة لا تُعوّض للحصول على نفوذ في والاشيا، فدعم فلاد الثاني للعودة إلى الحكم، وكان له ما أراد.. وفي المقابل أسر ولديه فلاد ورادو (الأخ الأصغر لفلاد) رهينتين وضمان لولاء والدهما. وليس هذا وحسب، بل إن فلاد الثاني تعهّد بدفع الجزية للسلطان العثماني.

تُعلّق كوزمينا: تبدو صفقة مهينة.

- نعم، هي كذلك. لكن هناك من يفعل أي شيء في سبيل السلطة. أليس كذلك؟

لم تنتهِ مؤامرات النبلاء ضد فلاد الثاني، خصوصًا بعد أن أصبح حليفًا للأتراك. بل إن تلك الحقيقة دفعت المؤامرات باتجاه أكبر، فدُبرت عملية اغتيال فلاد الثاني، ومن ثم تم اغتيال ابنه الأكبر ميرتشا. واستولى فلاديسلاف الثاني حليف ملك المجر على حكم إمارة والاشيا.

عندما علم الأتراك بما حدث أطلقوا سراح فلاد الثالث واستبقوا رادو، وذهب فلاد كي يسترجع ملكه. ونجح بالفعل، لكن فلاديسلاف لم يتردد في طلب الدعم من ملك المجر، والذي لم يتوانَ عن تقديم المساعدة. فهرب فلاد إلى مولدافيا في حماية عمه بوغدان، يتحيّن الفرصة كي يعود.

لكن لسوء حظ فلاد أن قُتل بوغدان، مما اضطره للهروب مرة أخرى، ولكن هذه المرة قادته عقليته الدبلوماسية إلى المجر، ومن المفارقات التي تُحسب له أن كسب ود ملك المجر، والذي حاول حتى التوفيق بينه وبين فلاديسلاف.

تعجبت كوزمينا: هل يقبل فلاد الصلح مع قاتل أبيه؟!

فيرد المشرف: إن السياسة لا تؤمن بالولاءات الدائمة ولا العداوات الدائمة. لكن حادثًا جللاً قد حوّل انتباه أوروبا كلها إلى مركز الكنيسة الرومانية الشرقية، القسطنطينية في ذلك الوقت.

في 29 مايو 1453 سقطت القسطنطينية في يد الأتراك، بقيادة السلطان الجديد محمد الثاني. والذي يحدث أن فلاد يكنّ له عداوة شديدة وبغضًا أكبر بداعي أنهما ترعرعا معًا في كنف السلطان مراد الثاني.

تتساءل كوزمينا: لم أفهم، ما داعي كل هذه الكراهية إن كانا قد ترعرعا معًا؟

فيبتسم المشرف ويقول: أوه عزيزتي! إن النفس الإنسانية لمليئة بتوافه الأمور التي قد تؤلّب المرء على أخيه، فكيف بالأسير ألا يكره ابن آسره؟

بدا ذلك لها مقنعًا.

انشغلت المجر صاحبة النفوذ الأول في البلقان، في المد العثماني الجديد على مشارف البلقان. فاستغل فلاد الفرصة وغزا والاشيا.. وتمكّن أخيرًا من غريمه اللدود فلاديسلاف وقتله، فثأر بذلك لأبيه وأخيه واستعاد ملكه مرة ثانية.

بدأ فلاد فترة حكمه العادل، وقام بتنظيف البلاد من النبلاء المتآمرين. وكان نصيرًا للفقراء، وقرّب منه أشخاصًا ليسوا من ذوي النسب، بل قلّدهم المناصب العليا في الدولة، مما جعل منه رجلاً محبوبًا في مملكته. لكن الخطر العثماني لم يلبث أن اقترب من مملكته أكثر فأكثر.

كان مما ليس منه بد، فتحالف فلاد مع ملك المجر ضد العثمانيين، ونجح في هزيمتهم وصد غزواتهم، مما جعل محمد الثاني يحشد جيشًا قوامه ثلاثمائة ألف رجل لغزو والاشيا، وصمم على أن يقود بنفسه هذا الجيش.

لقّن فلاد محمد الثاني درسًا لن ينساه. فقد ألحق فلاد الكثير من الهزائم لحملة السلطان المُبجّل. صحيح أن جيش محمد الثاني تمكّن من دخول عاصمة والاشيا «تارجوفيشتي»*. لكن فلاد ترك فيها مفاجأة للسلطان.

تقول كوزمينا: جيش فلاد؟

- لا، أبدًا. لقد زُيِّنت شوارع المدينة بجثث خمسة وعشرين ألفًا من الأتراك والمسلمين مخوزقين على رماح خشبية.. وعلى أطولها كان قائد حملة عثمانية سابقة حمزة باشا، وقد كانت جثته متعفنة تمامًا وأكلت بعضها الجوارح. ويقال إن السلطان لم يطق هذا المشهد.. فبات الليلة خارج أسوار المدينة، وفي اليوم التالي أصدر أوامره بالانسحاب.

- إذن انتصر فلاد على العثمانيين؟

فيجيب المشرف: ليس بالضبط. فقد ترك السلطان خلفه جيشًا بقيادة رادو الوسيم، الأخ الأصغر للأمير فلاد.

- يا إلهي!

- نعم، كان رادو الوسيم عميلاً للسلطان.

- وماذا حدث مع فلاد؟

- تعرّضت موارد فلاد للجفاف إثر الحرب، فذهب إلى المجر لطلب المعونة. وهناك ألقوا القبض عليه بتهمة الخيانة العظمى.

- كيف؟ لم أفهم!

تعلّق كوزمينا بدهشة.

---

* مدينة رومانية تقع على بعد 65 كيلومترًا إلى الشمال الغربي من بوخارست.

- كما أخبرتك عزيزتي، في السياسة لا توجد ولاءات دائمة ولا عداوات دائمة. فلم يشأ ملك المجر أن يدخل حربًا مباشرة مع العثمانيين من أجل ورقة خاسرة كفلاد. كما أنه بسجن فلاد سينفرد بتبرعات الكنيسة لتمويل الحرب المقدسة ضد العثمانيين.

لبث فلاد في السجن عشر سنوات. ولم يخرج إلا بعد أن اعتنق الكاثوليكية وترك الأرثوذكسية. ورجع فوراً إلى والاشيا لاستعادة ملكه. وفي نفس العام، يموت رادو الوسيم في ظروف غامضة، حيث يقال بأنه مات مسمومًا. ولم يهنأ فلاد باستعادة ملكه سوى لشهرين، حيث أنه تعرّض لعملية اغتيال أثناء إحدى المعارك مع العثمانيين، وقُطع رأسه وتم إرساله للسلطان في القسطنطينية، الذي علّقه على رمح من خشب على بوابة المدينة كي يراه الجميع.

يختتم المشرف كلامه بأن يقول: أتمنى أن أكون قد أجبتك إجابة وافية.

- بل هي أكثر من وافية؛ لك مني جزيل الشكر.

تخرج كوزمينا من المتحف وفي عقلها أسئلة أكثر مما كان قبل قدومها. كان أهمها: ما سر اهتمام بوشينسكي المفاجئ بحكاية فلاد الثالث ورادو الوسيم؟ ثم خطر لها الأمر كالصاعقة.

*****

الفصل السادس

زيارة ماريا فادوفا

منزل ماريا

إحدى ضواحي بوخارست

امرأة شهباء، ذات عينين كالمحيط، وشعر أجعد. يبدو أنفها رقيقًا إن نظرتَ إليه من الجانب.. لكنه من الأمام يبدو مرخيًا قليلاً بالعرض. بذقنها الدقيق، وفمها الذي يبدو كأنها رسمته بيديها، تبدو كأنها حورية من حوريات الفردوس. تجلس تقرأ بهدوء في منزلها الواقع في إحدى أهدأ ضواحي بوخارست. يدوّي صوت جرس الباب ليكسر السكون من حولها.

لم تكن تنتظر أحدًا. توجهت ناحية الباب ونظرت من خلال عين الباب لتجد امرأة شابة. فتشجعت وفتحت الباب.

لم تكن الشابة سوى كوزمينا، التي تقف بابتسامة تدل على حرجها من الموقف.

- معذرةً، لم أقصد التطفل. لا بد من أنكِ ماريا فادوفا.

- نعم، ومن يريدها؟

- أنا د. كوزمينا دالكا. حدثني د. توروك عنكِ وجئتكِ من أجل بوشينسكي.

لم تنطق ماريا بكلمة، إنما ابتعدت قليلاً فاتحةً الباب لتسمح المجال لدخول كوزمينا. زاد حرج كوزمينا، لكنها دخلت على أي حال، معلّقةً بأنها لن تأخذ من وقتها الكثير. بينما أجابت ماريا: سيّان.

تدخل كوزمينا إلى غرفة الجلوس، بينما تتبعها ماريا التي تشير إلى كوزمينا بالجلوس أينما تشاء، ثم تابعت سيرها باتجاه البار وتسأل كوزمينا: كونياك؟ فتجيبها: لا، شكرًا. لم تلقِ ماريا بالاً لرفض كوزمينا وتسكب لها كأسًا على أي حال، لكنها تكثر لها مكعبات الثلج.. بينما سكبت لنفسها كأسًا كاملة مع القليل من الثلج. ثم توجهت باتجاه

الأريكة إلى جوار كوزمينا قائلة: لا أحب الشرب وحدي، إن كنتِ مهتمة بسماعي فإنك مجبرة على مجاملتي بالشرب قليلاً. فتومئ كوزمينا برأسها وعلى فمها ابتسامة صفراء وتقول في نفسها: يا لها من عاهرة!

تجلس ماريا، وهي تقول: لستُ عاهرة أو صعبة المراس هكذا دومًا. بدا الأمر وكأنها سمعت ما قالته كوزمينا لنفسها، والتي فكرت للحظة بأنها تلفظت بها بدلاً من قولها في عقلها فقط. فزاد حرجها وحاولت التبرير، لكن ماريا قاطعتها: أرجوكِ، أنا لستُ امرأة حمقاء. أنا أخصائية في علم النفس. كما أني جيدة جدًا في عملي.

وفي محاولة يائسة من كوزمينا لكسر الجليد المتراكم في هذا اللقاء المتوتر، ذكرت أنها حاولت مهاتفة ماريا سابقًا هذا اليوم. تناولت ماريا هاتفها ونظرت إليه، ثم وضعته دون مبالاة قائلة: يبدو أنه كان صامتًا. لماذا أنتِ مهتمة ببوشينسكي؟

فتشرح لها كوزمينا ما تفكر به بخصوص بحثها العلمي، وبأنها تعتقد أنها من الممكن أن تفسّر ما حدث معه إن كان حقًا مرتبطًا بزراعة القلب.

تنظر ماريا إلى عيني كوزمينا، ولأول مرة بدا عليها الاهتمام. فتستغل كوزمينا الفرصة جيدًا، فتسأل: هل كنتِ تحبينه؟

فتجيبها ماريا: كنا نتواعد لعامين متتالين. ولم نفترق خلالها لمدة تزيد عن يوم واحد.. ورغم ذلك لم نتبادل عبارة «أنا أحبك» ولو لمرة واحدة. كان جورجي...

وتصمت للحظات ثم تتابع: رجلاً عقلانيًا جدًا، كان رجلاً يقدّس العلم، بل كان العلم بالنسبة إليه كالمسيح بالنسبة لمسيحيّ تقي. وكنتُ مثله. لكنني لا أنكر...

ثم تصمت مرة أخرى. تمد يدها إلى كأس الكونياك، وتحتسي رشفة كبيرة. ثم تشعل سيجارة دون أن تنظر لكوزمينا، وتسند ظهرها إلى الأريكة، وترخي رأسها إلى الوراء، مغمضة العينين.. زافرةً نفساً بدا

عميقًا من الدخان.. حسنًا، لننتهِ من هذا. أتعلمين بأنه توقف عن التدخين بداعي القرف؟

لم تنتظر من كوزمينا ردًا، فقالت: لا يهم. علاقتي معه، كانت علاقة عقلانية للغاية. سنتان كاملتان ولم نتبادل كلمة حب واحدة.. نعم، نحن على تفاهم. وندرك أن تلك ليست سوى حيل وضعتها الطبيعة كي تقرّب بين زوجين بما يكفي للتكاثر.

- نعم، أعلم ذلك.

فتومئ ماريا برأسها وكأنها كانت تنتظر جوابًا، اعتبرته تشجيعيًا كهذا، وتتابع: نعم، من يصدّق تلك الخرافة التي تسمى بالحب؟ وتضحك بافتعال واضح.

أرى أنكِ تصدقينها. تقول كوزمينا بنبرة قاطعة.

فتقول ماريا باستنكار: ماذا؟ لقد أخبرتكِ لتوّي بما أراه في هذا الأمر.

لم تتأثر كوزمينا باستنكار ماريا: لستُ مضطرة لأن أكون أخصائية في علم النفس كي أشعر بما تشعرين به الآن. أنا امرأة أيضًا، وأعلم جيدًا حاجة المرأة للحب. إياكِ أن تظني بأن حاجتنا الفطرية تلك هي عيب في حقكِ كعالمة في طبيعة النفس البشرية، فأنتِ تعلمين أكثر مني، ولا بد تعلمين مدى احتياجنا لها. قد يحتاج الرجل المرأة، لكنه لن يمانع في أن تكون إلى جواره جسدًا دون روح. لكن أمرًا مماثلاً قد يكون قاتلاً بالنسبة إلينا. إن حاجتنا للحب أكبر من حاجتنا للرجل.

ترد ماريا بمكر: تتحدثين عن خبرة؟

تجيبها كوزمينا بهدوء: الأمر معي مختلف؛ لم ألتقِ بعد بمن يستحق.

- وهل تعتقدين أنكِ لمجرد كونك امرأة مثلي ستشعرين بما أشعر؟

لم تجبها كوزمينا، بل قبضت بيدها على حقيبتها ووقفت كي تنصرف، قائلة: أرى بأنكِ لا تزالين تعيشين حالة النكران، ولن تتمكني من الحديث عن بوشينسكي بتجرّد دون أن تتقبلي ما حدث.

بدا الموقف مهينًا بالنسبة لماريا، فقالت: ياه! كم أنتم العوام تعيشون هذا الوهم كله على أنه حقيقة! لمعلوماتك الشخصية، لا توجد دلائل علمية توثّق مراحل الحزن الخمس* تلك.

فتجيبها كوزمينا وهي تشير إلى ماريا: ها هي كل الأدلة التي أحتاجها! ثم تنصرف.

- كانت تلك مقابلة سيئة.

قالت كوزمينا في نفسها وهي تدخل غرفتها في الفندق.

كان يومًا طويلاً، ورغم الفائدة الكبيرة التي تحصّلتُ عليها من تورك -وإن كان لقاؤها به مقتضبًا- ومشرف المتحف، لكنها لم تتمكن من التأكد من ظنونها التي راودتها من بعد زيارة المتحف مباشرة.. والتي كانت لربما السبب الرئيسي لفعلها المتهوّر بزيارة ماريا على تلك الشاكلة.

هي لم تعرف حتى اللحظة السبب الذي دعا بوشينسكي للخضوع لتلك الزراعة المشؤومة على أي حال. فلم يأتِ أحد للآن على ذكر أي شيء عن ذلك، وتفكر كوزمينا: يا إلهي! كيف فاتني أمر كهذا؟ حسنًا، سيكون هذا أول أمر أسعى لمعرفته في الغد. الغد؟ أوه صحيح! لديّ موعد مع د. تورك، ذلك العجوز غريب الأطوار. في الواقع، هو ليس عجوزًا بالمعنى الحرفي للكلمة. لا مقارنة بينه وبين أمانار على سبيل المثال، فهو يبدو في أواخر الخمسينيات مع كل ذلك الشيب على جوانب رأسه، كما أن مساحات الشعر بدت متقلصة بشكل واضح في مقدمة رأسه.. وتلك التجاعيد الجذابة حول عينيه عندما يضحك. كما أنه خفيف الظل. يبدو شخصية محببة، لطيفة. بالتأكيد ليس

---

* مراحل الحزن الخمس أو نموذج كوبلر-روس.. هي نظرية وُضعت كنموذج لوصف المراحل النفسية التي يمر بها الإنسان حال الحزن. ويفنّد العلم الحديث هذه النظرية باعتبار أنه ليس ثمة أدلة تدعمها بشكل كافٍ.. وقد ذكر ذلك في الكتاب الشهير: «أشهر 50 خرافة في علم النفس».

كتلك الحقيرة ماريا. كم أنت سيء الذوق يا سيد بوشينسكي!

وتستمر كوزمينا في التفكير لمحاولة تبرير إعجاب بوشينسكي بماريا: لربما كان شكلها؟ هي بحق جميلة، لكن.. أيعقل أن يكون رجل عقلاني كبوشينسكي من النوع الذي ينساق خلف جمال المرأة حتى وإن كان عقلها لا يعجبه؟ لا، لا أخاله كذلك. هي على الأرجح لم تكن في أفضل حالاتها اليوم. ليس من الحكمة أن أحكم على الناس من خلال موقف واحد، خصوصًا إن كانت لا تزال تعيش صدمة كل ما حدث مع بوشينسكي. يتغلّب الجانب العاقل أخيرًا في شخص كوزمينا ويلتمس لماريا عذرًا. لكنها تتذكر كلمات ماريا الأخيرة: لا دلائل علمية نوثّق؟ فتقول: يا لها من متحذلقة! حسنًا، من الواضح أنني تعجّلت القول في تغلّب الجانب العاقل في شخص كوزمينا.

تقوم كوزمينا بطلب العشاء من خدمة الغرف عن طريق الهاتف. وتعود بسرعة بإجراء بحوث إضافية فيما يخص ما عرفته إلى الآن.

لم يطُل الأمر حتى وصلت خدمة الغرف بالعشاء. فتناولته على عجل. وسكبت لنفسها بعضًا من الروم، ثم تابعت بحوثها.

تلخص ما عرفته كوزمينا للآن: هناك إجماع على حدوث تغيير في سلوك بوشينسكي. وإن كان في أمور بسيطة، أو ظرفية كما يحلو لأمانار البغيض أن يسميها. فمن الجائز ألا تكون هذه التغيرات بسبب زراعة القلب.

مسألة ولادة ذاكرة مفاجئة لدى بوشينسكي مثيرة للاهتمام، وتحتاج إلى المزيد من البحث بكل تأكيد. فلا تولد الذكريات في عقل المرء هكذا دون شيء. أم عساني أقول لا تولد الذكريات في قلب المرء؟ مفارقة مثيرة للاهتمام.

حسنًا، ماذا لدينا أيضًا؟ مسألة التدخين قد لا تكون شيئًا يذكر، لكن تلك الجزئية الخاصة في كونها كانت ترتبط باللذة والمتعة عنده وفجأة أصبح يقول عنها بأنها مقرفة.. تصمت قليلاً، ثم تقول: لا، قد لا

يكـون شـيئًا مهمًـا. وتُفـرِغ كأس الـروم في جوفهـا دفعـة واحـدة.

تسكب لنفسـها كأسًـا أخـرى ثم تتابـع: مسـألة فـلاد الثالث ورادو الوسـيم توحـي بمفارقـة عجيبـة. الخـلاف العظيـم بـين الإخـوة، فـلاد البطـل ورادو الخائـن. يـا تـرى مـن البطـل فيكما أيهـا الأخويـن بوشينسـكي؟ بـدأ النعـاس يداهمهـا.. فتفـرغ الـكأس الثانيـة في جوفهـا.. ثـم تخلـد للنـوم كالقتيـل.

*****

الفصل السابع
الموعد مع توروك

ساحة قوس النصر

في تمام الساعة السادسة كانت كوزمينا في ساحة قوس النصر، كما كان الاتفاق مع توروك الذي لم يتأخر عن موعده.

تقع ساحة قوس النصر بالقرب من بحيرة هوراشتيو، في واحد من أجمل أحياء العاصمة الرومانية.. وهي تستحق لقب باريس الشرق دون شك.

حيّا بعضاهما بعضًا ثم عرض توروك أن يمشيا بامتداد شارع ألكسندرو كونستانتسكو وباتجاه ميدان شارل ديجول ليستقرا في أحد المقاهي، وأثناء ذلك.. يقول توروك: لطالما أحببتُ هذا الميدان، لقد استنسخنا قوس النصر من باريس.. لكننا كرومان لا نعاني من نقص في رجولتنا فلم نستنسخ برج إيفل. فتضحك كوزمينا وتقول في نفسها: يا لهذا الهوس المتعلّق بالأحجام لدى الرجال!

قهوة؟ يسأل توروك. فتومئ كوزمينا برأسها. فيشير للنادل الذي يأتيه على عجل ويطلب لهما قهوة.

تجول كوزمينا بنظرها في الأرجاء.. حيث يطل المقهى على ما يشبه الغابة والتي تقع بحيرة هوراشتيو خلفها، منظر يخلب الألباب دون شك. يقول توروك: لربما أكون سعيد الحظ اليوم بوجودك.

- كيف؟

- إن فرص الرجل في جذب انتباه النساء أكبر عندما يكون مع فتاة جميلة.

تتعجب كوزمينا وتقول مغتاظة: كنتُ أتوقع شيئًا مختلفًا من رجل في سنك.

- وكم تتوقعين عمري؟

فتجيبه على الفور: في أواخر الخمسينيات.

فيُصدم توروك، ويقول: يا إلهي! هل أبدو كبيرًا لهذه الدرجة؟

- ألستَ كذلك بالفعل؟

تتعمد كوزمينا إغاظته. فيقول: لقد أخطأتِ بعشر سنوات على أقل تقدير، فإنني أكبر جورجي بثلاثة أعوام فقط.

تقول كوزمينا: لا يبدو عليك ذلك، وتبتسم مُصرّة على إغاظته.

وفي محاولة بائسة من توروك لتغيير الموضوع يقول: كان جورجي يحب هذا المقهى.

لا عجب. تجيب كوزمينا.

- تحدثتُ مع ماريا صباح اليوم وأخبرتني عن زيارتك المفاجئة لها مساء أمس.

لم تتفاجأ كوزمينا، بل طأطأت رأسها بابتسامة، ثم قالت: هل أخبرتك أيضًا كم كانت.. لكنها تسكت، ثم تقول: أقر بأنني أخطأت بالذهاب عندها.

- لا عليكِ، لا أعتقد أن ماريا استطاعت أن تتقبل ما حدث بعد.

بدا توروك هنا كريم النفس إذ لم يستغل الفرصة ويثأر لنفسه من إغاظة كوزمينا له فيما يخص عمره. ويردف: أتعلمين؟ -إننا مهما بلغنا من العلم والحكمة - ننصح من هم سوانا، لكننا قد ننتكس بشدة إذا ما تعرضنا لذات الظروف. هذا جزء من التناقض المثير للنفس البشرية. صحيح، قلتِ بأنك تستطيعين تقديم تفسير لما حدث مع جورجي.

يأتي النادل مع القهوة فيقدمها بينما يصمتان، يشكرانه، ثم ينصرف.

- نعم، أظن أنني قد أتمكن من ذلك.

وتبدأ كوزمينا بشرح نظرية الذاكرة الخلوية لتوروك الذي ينصت إليها باهتمام. وعندما انتهت، ساد صمتٌ للحظات رشف توروك خلالها رشفتين متتاليتين من القهوة. ثم بدأ يقول: مثيرٌ للاهتمام بحق. إذن، فالذكريات الجديدة تلك إنما هي ذكريات صاحب القلب الأصلي، قد

يكون استاذًا في التاريخ أو الأدب.

هنا، تتذكر كوزمينا سؤالها المهم: بالمناسبة، لماذا اضطر بوشينسكي لإجراء زراعة القلب؟

- في الواقع، كانت معجزة بأن تحمّل قلبه كل تلك السنين. كان قلب بوشينسكي يحمل نوعًا نادرًا من العيوب الخلقية، والذي لم يكتشف إلا بعد أن تجاوز الثلاثين عامًا، وهي بحد ذاتها معجزة أخرى.

- كان من الممكن أن يصاب بسكتة قلبية في أي لحظة إذن.

- نعم، بالضبط. كانت أيامًا عصيبة. لكن ذلك لم يمنع بوشينسكي من الاستمرار في التدريس بالجامعة، ولم يتوقف عن تقديم الأبحاث العلمية قط. كانت عملية البحث عن متبرع مضنية للغاية، أتصور أن أي شخص عدا جورجي كان ليشعر بالقنوط، لكنه على العكس، كان شعلة من الأمل. كان مقاتلاً بحق. بالإضافة إلى أنه لم يشأ أن يخلّف والدته وراءه.

ثم سكت قليلاً، وارتشف المزيد من القهوة. وأردف يقول: لربما عليّ أن أوضح طبيعة العلاقات العائلية في عائلة بوشينسكي.

- قبل أن نفعل، أين قام بزراعة القلب؟

- لقد أرسلته والدته ليجري الجراحة في ميونيخ.

- هذا يفسّر الكثير!

- أعذريني دكتورة، لم تكن والدته تثق في أطباء البلاد.

ويردف بسخرية: رغم أنها واحدة منهم، ويضحك.

- حسنًا، تستطيع الآن أن تكمل ما أردت أن تقول.

- حسنًا، ماذا تعرفين عن الثورة الرومانية 1989؟

تقطّب كوزمينا حاجبيها وتقول: لم أفهم، ما علاقة الثورة ببو شينسكي ؟

يبتسم توروك ويقول: فاسيلي ميليا.

تكره كوزمينا سيرة الثورة لأنها تُذكّرها بحادثة وفاة والدتها، لكنها

تركت كل المجال لتوروك ليقول ما يشاء.

- إن الأحداث العظيمة تبدأ بحدث بسيط بالعادة، وهكذا كانت الثورة، قام أسقف في الكنيسة المجرية يدعى «لازلو توكيش» في تيميشوارا بتصريح لقناة مجرية انتقد فيها سياسة النظام الشيوعي ووصفها بالمستبدة وأردف أن الرومان لا يعرفون حقوق الإنسان. انتشرت تصريحات توكيش في أنحاء البلاد كشرارة في قش جاف، وعلى الفور أصدرت الإدارة المركزية قرارًا بطرد الأسقف المجري. عندها بدأت المظاهرات في تيميشوارا للتنديد بهذا القرار، بل إن تجمعات من الأهالي بدأت في التجمهر حول بيت الأسقف لحمايته من الشرطة السرية سيئة السمعة. في نهاية يوم 16/12/1989 كان واضحًا للجميع بأن تلك الجموع لن تتفرق. هذه الأحداث ستُعرف فيما بعد بانتفاضة تيميشوارا. في صباح اليوم التالي.. بدأت الاشتباكات مع قوات الأمن، وبدأ سقوط القتلى، ثم بدأت الاشتباكات تنتشر وتتوسع إلى بقية المدن الرومانية من تيميشوارا، تورغا مورس، كرايوفا، برازوف، وأخيرًا بوخارست. بدأ الثوار في رفع الأعلام الرومانية المثقوبة (أي التي أزيل منها شعار الحزب الشيوعي) وبدؤوا بترديد الأناشيد الوطنية القديمة كنشيد «استيقظوا أيها الرومان» المحظور منذ عام 1947. في 18/12/1989 تم إعلان حظر التجول والأحكام العرفية في جميع أنحاء البلاد. وبدأ الثوار في تبادل إطلاق النار مع قوات الأمن التي فشلت في السيطرة عليهم.

عند هذه النقطة، شردت كوزمينا وتذكرت يوم وفاة والدتها، وهو ذات اليوم الذي فُرضت فيه الأحكام العرفية. لكنها ما لبثت أن عادت تصغي مرة أخرى لصوت توروك الذي كان يتحدث بنبرة تملؤها الحماسة.

- في 20/12/1989 صدرت الأوامر بإرسال الجيش إلى الشوارع لإعادة حفظ الأمن. لكنه لم ينجح في ذلك. وفي 21/12/1989 أرسل تشاوتشيسكو

مائة ألف رجل في محاولة أخيرة لفرض سطوته على الأرض والسيطرة على انتفاضة تيمشوارا.. وقام بخطاب كان خطابه الأخير، يخاطب فيه الأمة كمحاولة لامتصاص غضب الشعب المتأجج. في 22/12/1989 حدث أمر جلل، فقد أعلِن مقتل فاسيلي ميليا وزير الدفاع. لا أحد يعلم على وجه التحديد ما الذي حدث. بينما تقول الرواية الرسمية للحكومة آنذاك بأن ميليا ضُبط بالخيانة العظمى فقام بالانتحار.. بينما يؤكد ضباط مقربون منه بأنه قُتل. وفي الحقيقة هو لم يكن ينوي الانتحار إنما أراد أن يصيب نفسه بإصابة بالغة تبعده عن المنصب، ولسوء حظه أن الطلقة أصابت شريانًا رئيسيًا فمات متأثرًا بجراحه. بعد بضع ساعات أعلن الجيش انحيازه للثورة وتم إعلان جبهة الخلاص الرومانية المكوّنة من أعضاء بالحزب الشيوعي من الصف الثاني، بزعامة حليف تشاوتشيسكو الأسبق أيون إليسكو، للمطالبة بإنهاء الحكم الشيوعي للبلاد.. وفر تشاوتشيسكو من قصر الحكومة في بوخارست عن طريق طائرة هليوكوبتر. بعد ساعات قليلة، أعلن الجيش اعتقال تشاوتشيسكو وزوجته إيلين، وتمت محاكمتهما الصورية التي رأيناها جميعًا، ثم اقتيدا إلى الشارع ونفذ فيهما حكم الإعدام رميًا بالرصاص. تسلّم أيون إليسكو زعيم حركة الخلاص رئاسةِ الحكومة المؤقتة، وقد أعلن بأنه لا يسعى إلى أي منصب سياسي، وأن حركة الخلاص تقوم بدور مؤقت في قيادة البلاد، إلى أن تكون هناك انتخابات رئاسية ديموقراطية وتطمئن إلى نزاهتها. وقبيل تلك الانتخابات المزعومة قام إليسكو بإنشاء حزب سياسي بزعامته وترشح للرئاسة، وكانت النتيجة أن حقق نصرًا في الانتخابات بأغلبية 70% من الأصوات.

- ماذا يعني كل هذا؟ لم أفهم.

- أنتِ لا تفهمين عزيزتي. قد كان إعلان مقتل فاسيلي ميليا بالإضافة إلى الشائعات التي اتهمت تشاوتشسكو بقتل رفيقه السابق ميليا هي نقطة مفصلية في مسيرة الثورة، فلم يكن من الممكن أن ينحاز الجيش

للثـوار لولاهـا.

- حسنًا، وماذا يعني ذلك؟ وما شأن بوشينسكي بهذا؟

يبتسـم تـوروك مـرة أخـرى، لكنهـا هـذه المـرة كانت ابتسـامة أكبر ويقول: في الواقـع، لـم ينتحـر ميليـا. بيوتـر بوشينسـكي هـو من أطلـق النار.

- ولمَ عساه يفعل ذلك بحق الجحيم؟

يجيبهـا تـوروك بحمـاس: قـد أخبرتـكِ أن إعـلان مقتـل ميليـا كان مفصليًا. ولكـن... ثـم يسـكت بعـض الـشيء محـاولاً ترتيـب الأفـكار في رأسـه ثـم يقـول: وهـو يشير بيديـه بشـكل متـوازٍ: أتريـن؟ لقـد كان بيوتـر مـن داخلـه يمقـت الشيـوعية، لكنـه ابتاعهـا كوسـيلة للتقـدم في قيـادات البـلاد.

- لستُ أفهم، ما الذي يضطره إلى ذلك؟

فيجيبهـا تـوروك: معـكِ حـق، لا شيء. لكـن شـخصية بيوتـر بوشينسـكي تختلـف عنـا أنـا وأنـتِ؛ هـو رجـل قيـادي بالفطـرة، لا تتوقعـي منـه أن يـنزوي في ركـن مـا. هـو لـم يخـفِ نفسـه عندمـا كان ضـد الشـيوعيين في البدايـات، وعندمـا لـم يجـد سـبيلاً لهزيمتهـم انضـم إليهـم، كمـا تقـول الحكمـة القديمـة، وعندمـا سـنحت لـه الفرصـة المناسـبة ضرب وبشـدة.

فتقول كوزمينا مندهشة: لكنك قلت بأن ميليا صديقه!

- نعـم، لكـن ميليـا لـم يتـوانَ عـن إصـدار الأوامـر بإطـلاق النـار عـلى المتظاهريـن العُـزّل. وهـذا مـا لـم يـرضَ عنـه بيوتـر عـلى الإطـلاق. وقـد حـاول في أكـثر مـن مناسـبة بـأن يجعـل ميليـا يتوقـف لكنـه لـم يفلـح. عندهـا لـم يجـد بيوتـر مـن بـد لمـا فعـل. وتريديـن الحـق؟ كانـت عمليـة محكمـة، لا غبـار عليهـا. تُرفـع لـه القبعـة بـكل تأكيـد.

- هل هذا يعني بأن بوشينسكي كان مع الثوار؟

- أوه عزيـزتي! لا تكـوني سـاذجة. كان في اتصـال مـع جبهـة الخـلاص والـتي ليسـت سـوى الصـف الثـاني مـن الحـزب الشـيوعي، أو لنقُـل الثـورة المضـادة، لكنـه لـم يكـن مـع الثـورة بالمعنـى الحـرفي للكلمـة، لقـد كان بيوتـر رجـلاً محترمًـا، بإمكانـك القـول بـأن ضمـيره كان دافعـه.

- لم أفهم، كيف كانت جبهة الخلاص ثورة مضادة وهم مع الثورة؟

- الأمر جد بسيط، إن المؤسسات الكبرى كأنظمة الحكم تتصرف بغريزة البقاء وعند تقييم واقعي للوضع العام في ثورة 1989، كان الجميع يرى بأن الاتحاد السوفييتي قد تخلى عن تشاوتشيسكو، فلم تكن هناك أي إشارة منه تدلل على أنه من الممكن أن يتدخل عسكريًا كما فعل في السابق مع المجر وتشيكوسلافاكيا*. لذا كان الأمر يعني أن الجيش الروماني سيدخل في حرب مباشرة مع المعارضة المسلحة، وكان لذلك أثر سيء إعلاميًا، وسيخسر الحزب شرعيته إن احتفظ بالسُلطة من خلال سفك الدماء وبوحشية الجيش والشرطة السرية الشهيرتين. لذا كان الأمر بسيطًا، الثوار لا يريدون تشاوتشيسكو، ولا يريدون الشيوعية بعد الآن؟ حسنًا، لهم ذلك. فينسحب الصف الثاني من قيادات الحزب الشيوعي ويكوّنون جبهة الخلاص بقيادة حليف تشاوتشيسكو الأسبق أيون إلييسكو، والذي أعلن عدم طمعه في السلطة وأنه لن يترشح للانتخابات، ثم يكوّن حزبًا ويترشح للرئاسة تحت اسمه، ويحصل على ثلاث فترات رئاسية.. وبشكل منسجم تمامًا لم يحاكم أي شخص من المسؤولين عن قتل المتظاهرين طوال تلك المدة.

- حسنًا، وماذا عن بيوتر بوشينسكي؟

- اعتزل السياسة بعد الثورة.. ثم انعزل نهائيًا حتى وفاته بعدها بسبعة أعوام، وأقيمت له جنازة عظيمة حضرها إلييسكو شخصيًا.

- وكيف أثّر كل ذلك على عائلة بوشينسكي؟

- ما رأيك بزيارتهم؟

تُفاجأ كوزمينا: هل هم موجودون؟ أقصد، كنت أعتقد... وترتبك لدرجة أنها لم تستطع أن تكمل العبارة. فيضحك توروك ويقول: لا

---

* اجتاحت القوات السوفيتية المجر لقمع ثورة 1956 وقامت بعمل مشابه في تشيكوسلوفاكيا عام 1968.

عليكِ، هما موجودان. لا تعوّلي كثيرًا على بودي، فهو خَرِفٌ بعض الشيء. أما إيلين فقد تعافت الآن.

- تعافت؟ لمَ؟ ممّ كانت تشكو؟

- سأخبركِ في الطريق.

وينادي توروك النادل ويدفع الحساب ثم ينطلقان.

*****

٧٩

٨٠

الفصل الثامن
في الطريق إلى بيت آل بوشينسكي

جادة ميهالاشي- جادة القطاع الأول

يقع القطاع الأول في شمال غرب بوخارست، وهو ليس بعيدًا عن ساحة قوس النصر. وبإمكاننا القول بأنهما يحتاجان إلى عشر دقائق كي يصلا إلى بيت بوشينسكي.

وفي الطريق أخبر توروك كوزمينا بأن إيلين كانت قد تعرضت لضرب مبرح من صلاح في لحظة سُكر، وقد كان هذا السبب المباشر الذي جعل الشبهات تدور حول جورجي.. لأنه في فورة غضب أقسم أمام الجميع بأنه سيقتل صلاح. توقف توروك أمام بيت آل بوشينسكي وقال: ها قد وصلنا. طبعًا لم يكن هذا كافيًا لكوزمينا التي صممت على أن تسمع المزيد قبل أن تنزل من السيارة. نظر توروك إليها مُطوّلاً ثم قال: حسنًا، لكِ ذلك.

- كان صلاح يكبر جورجي بعامين. وكان حملها بجورجي غلطة، فلم تكن إيلين تريد أن تنجبه، وأرادت أن تجهض. وقد حاولت بالفعل القيام بجهد عضلي كي تسقط حملها. لكن جورجي كان مقاتلاً حتى وهو في بطن أمه. وعندما أنجبته أقدمت على إجراء ربط قناة فالوب. لتضمن أن خطأً كجورجي لن يتكرر. لاحقًا، ندمت على ذلك كثيرًا. كانت شخصية الأخوين مختلفة تمامًا، كان صلاح معتدًا جدًا بنفسه، متمردًا، لا يقيم شأنًا لأحد إلا لجده بيوتر، وذلك ليس حبًا فيه إنما خوفًا ومهابةً منه. وكان جورجي على العكس تماماً، طيب القلب، طيّعًا، فكان من البديهي أن يميل قلب الوالدين لجورجي. كان هذا أشد ما يغيظ صلاح، وكانت له ردودٌ عنيفة إزاء ذلك. كانت آخرها تلك الليلة العصيبة التي قضتها إيلين تحت رحمته. كان صلاح ساديًا، ويقال بأنه ينتمي إلى المافيا. كان مصدر عار كبير لعائلة بوشينسكي.. وكان الجميع يضيقون ذرعًا بتصرفاته الرعناء. لم يكن ليجرؤ أن يفعل ما فعله تلك

الليلة لو كان جده حيًا. وساء الأمر كثيراً بعد وفاة بيوتر بالفعل. لقد حاول معه والده كثيرًا دونما فائدة. هل يكفيكِ هذا؟

- لا، ما الذي حصل بالضبط تلك الليلة؟

- كان جورجي قد تعافى من الجراحة وبدأ يعود لنسق حياته الطبيعية، وكان صلاح في زيارة يومها لوالديه، وظل بودي يتحدث عن أفعال جورجي وهو صغير، بينما كانت إيلين تنظر إليه وتضحك. كان الأمر عفويًا للغاية، بودي خرِف لدرجة لا يعي فيها شيئًا. هو يعيش في عالمه الخاص، بينما كانت إيلين تضحك في لحظة من الكوميديا السوداء، تعيش فترة من المشاعر المختلطة ما بين نجاح جراحة جورجي وواقع بودي الذي يتحدث عن فترة تحبها إيلين جدًا. كان صلاح يصغي لكل ذلك وهو جالس على كرسيه في ركن البار، ويفرغ الكأس تلو الآخر في جوفه. لم ينبس ببنت شفة طوال الوقت.. فقد جاء ولم يتكلم مع أمه أو والده شيئًا، وهو يفعل ذلك بالعادة، يأتي ثم يجلس إلى البار ويحتسي الشراب ثم يرحل. ويدّعي أنه يأخذ بركة والديه بأمثال تلك الزيارات، بينما هو يقضيها في الشرب.

- ولِمَ برأيك يقوم بتلك الزيارات؟

- هل تسألينني بصفة مهنية هنا؟

- نعم، بإمكانك أن تعتبر سؤالي كذلك.

فيبتسم توروك ويقول: أعتقد أن السبب الحقيقي لزياراته تلك هو رغبته في الشعور بقربه من غريمه جورجي. اسمعي، ساستخدم تعبيرًا قد يروقك، لنقل بأن الغيرة قد ملأت قلبه حرفيًا. وفي تعبير آخر، إنه الحسد. يقول تشارلز داروين في الجانب الاجتماعي من نظريته في النشوء والارتقاء: إن الكائنات تسعى إلى ما يعزز فرصها في البقاء والتكاثر، وتبدي سلوكًا عدائيًا ضد من ينافسها في ذلك. ولنقل بأن حالة صلاح تجسد مثالاً حيًا على ذلك.

- لكن لماذا صلاح؟ أعني، هناك إخوة يولدون في كل يوم. لمَ لا

يحدث ذلك معهم جميعًا؟

- صحيح، لكنه يحدث بالفعل مع الجميع لكن بنسب مختلفة. هذا ما يجعل حياة كل فرد منا فريدة؛ إننا نستجيب لذات المعطيات بطريقة مختلفة، حتى وإن كانت ذات الطريقة فإنها تكون بدرجات مختلفة. في العلم الحديث لم يُتعرف بالضبط على الآلية التي تجعل ردود أفعالنا تختلف من فرد إلى آخر بعد.

- تبدو متفائلاً بأن يحدث ذلك يومًا!

- ولِمَ لا أتفاءل؟ دعيني أكمل.

- آه صحيح، أرجوك أكمل.

وتبتسم كوزمينا.

- المثير في نظرية داروين أن الانتخاب الطبيعي كمفهوم اجتماعي يعني أن البقاء للأقوى، وفي الواقع هناك دراسة مثيرة للاهتمام تقول بأن ألمانيا كانت تتبنى ذلك المفهوم؛ بأنه حق للإنسان الأقوى والأفضل بأن يستمر في الوجود على حساب الكائنات البشرية الضعيفة، ومن هنا بدأت فكرة نقاء العرق الآري.

- يا إلهي! هذا فظيع!

يبتسم توروك مرة أخرى ويقول: لقد جعل البعض من الأثر الاجتماعي لنظرية داروين مبررًا كي يلعبوا دور الآلهة على الأرض. إنها الخطيئة الأصلية يا دكتورة.. خطيئة الطاووس إبليس، ثم خطيئة قابيل الخطيئة الأولى للبشرية. المهم، فجأة كسر صلاح الزجاجة التي في يده. وقال: جورجي، جورجي! وكأنه لم يُنجب لكما أحد سواه. وكأنه بمجرد نجاح جراحته قد حقق إنجازًا عظيمًا. إن أطباء ألمانيا هم من يستحقون الثناء لا هو. أجابته إيلين بذهول وتحدٍ: إن بقاء جورجي حيًا رغم كل شيء هو إنجاز عظيم، وهو وحده من يستحق الثناء على ذلك. في الواقع، كانت إيلين تشعر بالذنب لمرض جورجي لاعتقادها بأنها قد تكون مسؤولة عن مرضه بطريقة أو بأخرى بسبب

محاولاتها لإجهاضه، ولذلك كانت تهُبّ دومًا في الدفاع عنه أمام صلاح، سليم الجسد فاسد العقل. ورغم أن إجابة إيلين لم تكن مستفزة لهذه الدرجة، لكن صلاح ثارت ثائرته، وتقدم نحو إيلين وأمسكها من شعرها وقال: لو أنكِ أحسنتِ الإجهاض لَمَا كان الآن موجودًا ولمَا كانت تلك المعجزة؛ بدأت إيلين بالبكاء، بينما كان بودي في عالم آخر. تمادى صلاح كثيرًا، فبدأ يتشمَّم إيلين ككلب تفتيش في أحد المطارات يبحث عن آثار حب والدته لأخيه، لكن إيلين تعمدت استفزازه فقالت: نعم، إنها غلطتي فكان يجب أن أجهضك أنت. فلطمها صلاح على وجهها وهو ما يزال يمسك بشعرها بيده الثانية، ثم قام بدفعها بيده التي يمسكها من شعرها بها بأقصى ما يستطيع من قوة. فارتطمت إيلين بالحائط وسقطت أرضًا. لا بد من أن هذا الضجيج قد أفاق بودي من أحلام يقظته التي لا تنتهي. فتنبّه لما حدث في إحدى اللحظات القليلة التي يعود فيها إلى وعيه. وقام نحو إيلين وساعدها على الوقوف. ثم توجّه نحو صلاح وقام بلطمه لأول مرةٍ في حياته. لم يحاول صلاح بأن يدافع عن نفسه. بل ترك والده يستفيد من موقف الضربة الأولى ثم قام وبكل تمهّل بنزع حزام بنطاله، مما حذا بإيلين بالوقوف أمام بودي للدفاع عنه، فهي تعلم بأنه من الممكن جدًّا أن يموت بين يدي صلاح الساديتين. وهكذا، نالت إيلين حصة الأسد من حزام صلاح بينما عاد بودي خلال ذلك إلى عالمه ولم يخرج منه بعدها أبدًا. تعرّضت إيلين لرضوض شديدة، بالإضافة لكسر في ذراعها اليسرى، أزالت جبيرتها قبل نحو الشهر. وعندما سُئلت في المشفى قالت بأنها تعرّضت لحادث. هل يكفيكِ هذا الآن؟

- سؤالان أخيران: ما الأدلة التي قد تشير إلى أن جورجي هو القاتل؟

- عليكِ أن تعلمي بأن جثة صلاح اكتُشِفت عَرَضًا في منطقة نائية خارج بوخارست، ولم يكن ممكنًا التعرف عليها، فقد كانت مشوّهة ومحترقة عن آخرها. ويقال بأنه لولا اختفاء جورجي لما كان ممكنًا

التشكك في أن تكون تلك الجثة لصلاح.

- لم أفهم. ما العلاقة بين اختفاء جورجي وتلك الجثة؟

- الطلقات التي كانت في تلك الجثة من عيار 10 ملم وهو عيار غير شائع، وقد كان صلاح ذاته يملك مسدسًا من هذا العيار.. وهو مفقود حتى الآن. وعندما وجدت الجثة كانت تحت سيارة صلاح. حيث يبدو أن القاتل قد وضعها بتلك الطريقة فوق الجثة ثم قام بإشعال النار في السيارة. والقاتل كان ماكرًا للغاية، فقد كان رقم المحرك مُمحَى، ورقم السيارة لم يكن موجودًا. عندما اختفى جورجي قامت إيلين بإبلاغ الشرطة، والتي قامت ببعض التحريات. وعندها فقط تم الربط بين تلك الجثة وصلاح. وكان الاعتقاد الأولي بأن جورجي قد يكون الضحية، لكن الأمر قد اختلف تمامًا بعد فحوصات الـDNA التي أجرتها الشرطة، والتي أثبتت أن الجثة تعود لصلاح.

- يا لحظ إيلين العاثر مع جورجي!

تقول كوزمينا في نفسها ثم تردف: إذن هي تلوم نفسها على مرضه وعلى توجيه أصابع الاتهام له في قضية مقتل صلاح.

يجيبها توروك: بالضبط. ثم يتابع: تقرير الطبيب الشرعي يقول بأن القاتل قد أفرغ سبعة أمشاط في جسد القتيل. ثم قام بسحق وجهه ورأسه بحجر ونزع فكيه حتى لا تتمكن الشرطة من التعرف على الضحية عن طريق مطابقة سجلات الأسنان. قبل أن يشعل النار في السيارة والجثة.

- هذا فظيع.

- والسؤال الأخير؟

- كيف عرفت عن كل ما أخبرتني بخصوصه؟

- الثورة وما حصل مع آل بوشينسكي؟ حسنًا، من الجميل في آل بوشينسكي أنهم يكتبون يومياتهم. وقد سمح لي جورجي بالاطّلاع على يوميات بيوتر. وباقي الأشياء علمتها من بودي وجورجي. بودي أحيانًا

يكون مصدرًا جيدًا للمعلومات إن كنتِ صبورة بما فيه الكفاية. هلمّ بنا؟

- نعم.

*****

٨٧

٨٨

الفصل التاسع

آل بوشينسكي

في بيت آل بوشينسكي

القطاع رقم واحد، بوخارست

ينزلان من السيارة، ويدقّ توروك الجرس، فتفتح إيلين الباب ويتهلل وجهها لرؤية توروك، الذي يحتضنها مُقبّلاً وجنتها ثم يعرّفها بكوزمينا، ويدخل الجميع.

تدخل إيلين غرفة الجلوس حيث يجلس بودي، الذي يبدو وكأنه تائه حتى في مجرد جلوسه، وتتحدث إليه مبتسمة بأنه قد جاء توروك ومعه ضيفة تسأل عن جورجي. كان كافيًا له أن يسمع اسم جورجي حتى يتهلل وجهه ويقف ليأخذ توروك في أحضانه، وكان وجه توروك باتجاه كوزمينا، فهمس لها: هو لم يعرفني.. إنما يحتضن اسم جورجي بي.

تقدم بودي من كوزمينا بتهذيب النبلاء، وقبّل يدها وكأنه أحد فرسان الطاولة المستديرة، ثم حياهما من جديد.. وبدأ حديثه: كان جورجي رقيقًا للغاية، لم أكن أجد وقتًا كافيًا كي ألعب معه. لكنني اليوم حضرتُ مبكرًا خصيصًا من أجله، ويبتسم. سيأتي عما قريب وسنلعب معًا كما لم نلعب من قبل، نحن لم نلعب من قبل، ولن نخبر صلاح بذلك. نعم، لن نخبر صلاح بكل تأكيد.

ثم مدّ يده إلى داخل جيب قميصه ليخرج صورة لجورجي وهو في العاشرة. وأعطاها لتوروك وقال: هل ترى كم هو لطيف؟! إنه ولدي. يمسك توروك الصورة ويريها لكوزمينا. بينما لم تزل إيلين واقفة وقد أبكاها المشهد. وقد تنبهت لنفسها فانصرفت إلى المطبخ. تلاحظ كوزمينا ذلك فترجع الصورة لتوروك وتهبّ للحاق بها.

تلتفت إيلين إلى كوزمينا ثم تبدأ بمسح دموعها بسرعة في محاولة يائسة لإخفاء بكائها. فتقترب منها كوزمينا وتقول لها: لا بأس من البكاء أمامي. لو كنتُ مكانك لبكيتُ كثيرًا. فأطلقت إيلين العنان لنفسها

وأجهشت بالبكاء وشاركتها كوزمينا البكاء، بينما تعانقتا كعناق الأم بابنتها الضائعة. كل يبكي لسبب مختلف.. فبينما كانت إيلين تبكي فاجعتها كانت كوزمينا تبكي أمها، وقد أثارها بكاء إيلين، وكونها الأم المفجوعة بولديها، أصاب ذلك ذاكرتها بشيء ما يخص والدتها وفاجعتها هي بها. وفي غمرة الدموع المنهمرة تلك، تسيل من فم إيلين عبارة: لقد خسرتهما.

بعد بضع دقائق تبدأ نوبة البكاء بالفتور، وتكفكف السيدتان دموعهما وتبتسمان للرابط الذي جمعهما في هذه اللحظة العاطفية العارمة. تُبادر إيلين بتحضير القهوة الأمريكية وتسأل: قهوة؟ فتومئ كوزمينا برأسها وتبتسم وتقول: أرجوكِ.

تسكب إيلين كوبين من القهوة لهما وتجلسان إلى طاولة البار الصغيرة في المطبخ، تبدآن برشف بعض القهوة في لحظات من الصمت، تبدو لتعزيز استيعابهما لما حدث للتوّ.

- هل تعتقدين بأن جورجي قتل صلاح فعلاً؟

- لستُ أدري.

تجيبها إيلين وتردف: لم يسبق لي أن رأيتُ جورجي في مثل تلك الفورة من الغضب من قبل. كما أن الأدلة التي وجدتها الشرطة كلها تشير إلى جورجي. لا أخفيكِ، أنا سعيدة لأنه اختفى. على الأقل لن يودعوه السجن.

تُطأطئ رأسها وتكتم أنفاسها قليلاً.. ثم تقول: ماذا قلتُ لتوّي؟ إنني أتلظى بين نارين! وتبدأ الدموع بالسيلان من جديد.. إنني أريد أن أراه مرة أخرى، وأريده بعيدًا كي لا يمسكوه كذلك. تحاول كوزمينا تهدئتها، بينما تحاول إيلين نفسها كبح جماح دمعها وتنجح في ذلك، فتتماسك ثانيةً.

ارتأت كوزمينا أن تعود بإيلين للجلوس مع بودي وتوروك. وقد كان بودي ما يزال يسرد الكثير من ذكريات ذلك العالم، الذي يبدو أنه

اختـار أن يعيـش أيامـه الباقيـة فيـه.

تحـدّث بـودي في كثـير مـن الأشـياء الـتي كان تـوروك قـد أخـبر كوزمينـا عنهـا، فتـارة هـي الثـورة، وتـارة يبـدي إعجابـه ببيوتـر بوشينسـكي، ثـم يعـود للحديـث عـن جورجـي، وإذا مـا أتى أحدهـم عـلى ذكـر صـلاح تجاهـل الأمـر وكأنـه لـم يكـن. وبينمـا هـو يغـوص في أحـداث الثـورة وأفعـال بيوتـر بوشينسـكي كان تـوروك ينظـر إلى كوزمينـا مبتسـمًا.

وأخـيرًا حنـا بـودي رأسـه كدجاجـة تغفـو في قفـص وعنقهـا يتـدلى خارجـه.. ويحـدث أنـه يفعـل ذلـك بعـد أن يأخـذه الإرهـاق مـن كـثرة الثرثـرة والسرد. تـأتي إيلـين بغطـاء وتضعـه عـلى بـودي وتريـح لـه رأسـه وعنقـه وهـي تبتسـم. وتقـول مخاطبـةً تـوروك وكوزمينـا: أتعلمـان؟ في بدايـة خـرف بـودي كنـتُ حزينـة جـدًا، لأنـني أفقـد حبيـبي ورفيـق عمـري شـيئًا فشـيئًا.. ثـم بعـد كل مـا حـدث، اعتـدتُ عـلى هـذا الأمـر، بـل يشـعرني بـأني عـدتُ أمًّا مـن جديـد.

تكافـح لئـلا تسـقط دموعهـا: هـل أخطـأت في شيء مـا حـتى يحـدث معنـا كل مـا كان؟ ثـم تبتسـم وتكفكـف دموعهـا مـن جديـد.. وتقـول: لا عليكمـا مـن هذيـاني.

يقـول تـوروك: في الواقـع، تقـول د. كوزمينـا بأنهـا قـد تتمكـن مـن مسـاعدة جورجي.

فتقول إيلين: أحقًا؟ وكيف ذلك؟

فتقـول كوزمينـا: كنـتُ أفكـر منـذ أن سـمعت عـن حالـة جورجـي في مـدى تأثـير عمليـة زراعـة القلـب عـلى سـلوكه.. وأرى أنـه مـن الممكـن لـو أننـا جمعنـا مـا يكفـي مـن الأدلـة فإننـا نملـك احتمـالاً قـد يشـكك في مـدى مسـؤوليته عـن أفعالـه فيمـا بعـد زراعـة القلـب.

فتقول إيلين بدهشة: ماذا تقولين؟

بينما يتابع توروك الحديث بنظراته وتبدو على وجهه ملامح الاهتمام.

- حسـنًا، هنـاك نظريـة تُدعـى بالذاكـرة الخلويـة وهـي تفـترض بـأن لـكل

خلية في جسم الإنسان ذاكرتها الخاصة، وعندما يتم نقل خلايا من جسم لآخر فإن عملية النقل تتضمن نقل بعض الذكريات أيضًا. وهناك فرض آخر في هذه النظرية، وهو أن عمليات نقل الأوامر العصبية بين العقل والقلب ثنائية الاتجاه، أي كما أن العقل يؤثر على القلب فإن القلب يؤثر في العقل بنفس الطريقة.. وإذا ما ربطنا الفرض الأول مع الثاني عندها من الممكن أن نصل إلى مرحلة الشك المنطقي في مدى مسؤولية جورجي عن أفعاله بعد الزراعة.

ثم تصمت للحظات وتردف: هذا بالطبع على افتراض بأن جورجي هو فعلاً القاتل الحقيقي.

بدت الحماسة ظاهرة على وجه إيلين، بينما بدا وجه توروك يحمل الكثير من علامات الاستفهام.. وعندما بدت إيلين على وشك الحديث قاطعها توروك قائلاً:هل تؤمنين حقًا بما تقولين؟

فتجيبه كوزمينا: إن رأيي مُعقّد بعض الشيء.

فيرد توروك: لدينا كل الوقت، أليس كذلك إيلين؟

فتجيبه: نعم، بالتأكيد.

تسأل كوزمينا ببعض الانفعال: لمَ يهمك إذا كنتُ أؤمن به أم لا؟ وذلك لأنها شعرت بأن توروك يكاد يسلك مسلك أمانار معها.

فيجيبها توروك: لأن ادّعائك يقضي على مفهوم حرية الخيار لدى البشر إن صحت تلك النظرية.

فترد كوزمينا: على العكس تمامًا، إنها تثبت حرية الخيار.

- كيف؟

- إن العلم الحديث الحالي يقول بأن سلوك الإنسان ما هو إلا استجابة لكيمياء الدماغ، إن أمكن لنا أن نسميه كذلك، وأننا من الممكن أن نجعل إنسانًا سعيدًا بحقن مادة كيميائية ما في جسده. وأنت تعلم ذلك جيدًا. حتى وإن كانت تلك السعادة مؤقتة تزول بزوال تأثير تلك المادة.

فيجيبها توروك: نعم، هذا صحيح.

فتتابع كوزمينا: وعليه فإن سلوك الإنسان من الممكن أن نتحكم به متى ما تمكّنا من فهم كيمياء الدماغ جيدًا في يوم من الأيام.

- صحيح، وهناك اعتقاد سائد بأننا قد نتمكن يومًا ما من تصنيع عقار ضد القتل أو ضد السرقة، والإنسان الذي يتعاطى هذا العقار لن يتمكن من القتل أو السرقة طوال مدة تأثير ذلك العقار.

- إذن فإن العلم الحديث الحالي هو من يقول بعدم وجود فكرة الخيار الحر لدى الإنسان.

- حسنًا، هل لكِ بتفسير نظريتك أكثر؟

- دعني أقرّب لك الأمر، إن العقل هو رئيس الجمهورية، لكنه لا يحكم بشكل مطلق. فهناك قوى ضاغطة في الجسم، والقلب هو أقواها.

- حسنًا، وهذا القلب لا يتأثر بالكيمياء؟

فتبتسم كوزمينا وتقول: ألم تتساءل من قبل لمَ يعجبك فلان من الناس دون سواه؟

يجيب توروك دون تفكير: بالتأكيد.

- وما السبب برأيك؟

يجيبها توروك فورًا: لأن الآخرين حمقى.

فتضحك إيلين وكوزمينا معًا، وتقول إيلين: أنا أتفق مع كوزمينا بأن هناك أمورًا نعرفها بالحدس أو كما يقولون بالقلب.

فيقول توروك: أرجوكما أيتها الدكتورتان الفاضلتان، لا تتحدثا عن أمور ليس لها أسس علمية. فليس ثمة أدلة علمية مقنعة على وجود الحدس أو الروح أو أيًا كان اسم ما تعنيانه.

وفي هذه اللحظة، يتلقى توروك مكالمة على هاتفه فيقول: اعذراني للحظة، ويقوم ليتحدث في المكالمة في الغرفة المجاورة.

تسأل إيلين: هل تعتقدين حقًا بأنه يمكن أن نساعد جورجي بهذه

الطريقة؟

فتجيبها كوزمينا: أجل، بكل تأكيد. لن يكون الأمر سهلاً، كما أنه يتوجب علينا أن نجده وأن نسمع منه؛ بكل تأكيد سيساعدنا في كشف المزيد من الدلائل. هل لديكِ أدنى فكرة أين يمكن أن أجد جورجي؟

- لا عزيزتي. كم أتمنى ذلك!

تصمتان لبضع لحظات فتدخل كوزمينا في لحظة من الشرود متساءلة: أين من الممكن أن يكون؟ ثم بدأت تتذكر بعض أحداث اليوم وذلك الكم الهائل من السرد، سواء من جانب توروك أو بودي. ثم لمعت عبارة قالها توروك: «من الجميل في آل بوشينسكي أنهم يكتبون يومياتهم.» نعم، يوميات.

يعود توروك قائلاً: معذرةً، إنه أحد عملائي يريدني الآن في جلسة طارئة، لذا أنا مضطر للرحيل.

فتقول كوزمينا: حسنًا، سأغادر أنا أيضًا.

فتقول إيلين: لمَ؟ لستِ مضطرة؛ ابقي معي إنني استأنس بكِ.

تعتذر كوزمينا من إيلين وتصر على الرحيل. فيعرض توروك أن يوصلها في طريقه وتوافق.

*****

٩٥

٩٦

الفصل العاشر
الزيارة الثانية لماريا فادوفا

في الفندق

يوصل توروك كوزمينا إلى الفندق بعد أن خاضا المزيد من الحوار فيما يخص نظريتها في الطريق، ولم يصلا بعد إلى توافق.

في الواقع، كان ببال كوزمينا أمراً آخر بخروجها المفاجئ من بيت عائلة بوشينسكي. وبمجرد وصولها الفندق، بل وهي ما تزال في البهو قامت بإجراء مكالمة هاتفية مع ماريا.

ترد ماريا: هذا أنتِ؟

- نعم، هذا أنا. أريد أن أتحدث إليكِ في أمر مهم. هل أستطيع المجيء إليكِ لنتحدث قليلاً؟

- وما يجعلكِ تظنين بأنني سأكون مختلفة عما كنتُ عليه بالأمس؟

فتجيبها كوزمينا: لستُ أفترض شيئًا، إنما أريد أمرًا ما ولذلك فقط سأضطر لتحملك.

- حسنًا، لكِ ذلك.

تقول ماريا هذه الكلمات ثم تغلق الهاتف.

بعد نحو نصف ساعة، تصل كوزمينا إلى بيت ماريا. هذه المرة كانت ماريا في استقبالها وبشكل مقبول. تُدخِلُها، ثم تبدأ كوزمينا مباشرة بالسؤال: هل ترك د. جورجي دفتر يوميات أو ما شابه عندكِ؟

- أهذا ما أتى بكِ إليّ؟ ولو فرضنا جدلاً بأنه موجود، ما الذي قد يجعلني أود أن أعطيكِ إياه؟

فترد كوزمينا: لا بد من أنك تعلمين كم أود مساعدة البروفيسور!

تنظر ماريا بريبة إلى كوزمينا، وبدأت يداها المرتعشتان تتجهان إلى السجائر لتشعل إحداها بعصبية.. وبعد أن تزفر نفسًا سريعًا، تقول: كان بإمكانكِ أن تسأليني ذلك بالهاتف.

وهنا، انفجرت كوزمينا في وجه ماريا: هلا توقفتِ عن كونكِ عاهرةً

للحظة؟ لستُ أفعل أيًا من هذا من أجلي. بل إنه من أجل جورجيكِ.. هل يساوي ذلك الرجل شيئًا عندكِ؟ لا عجب أنه قد كفر بالحب إن كانت امرأة مثلك هي صاحبته، إن كان ثمة أي شيء في قلبك تجاه جورجي فدعيه يتكلم إليّ، دعيه يظهر حبًا في المسيح أو أي شيء له قدسية لديكِ.

تزفر ماريا نفسًا آخر من الدخان، وتنظر لكوزمينا ببرود وتقول: هل انتهيتِ؟

فلم تجبها كوزمينا بل همّت بالانصراف، وتوقفت عند الباب لتقول: إن المرأة منا لقادرة على أن تحيي قلب رجل أو تميته.. ولو ظل جورجي بقربك أكثر، لربما احتاج إلى قلب جديد قريبًا جدًا. وانصرفت.

ظلّت ماريا وحيدة، تساورها مشاعر مختلطة.. تتدافع الكلمات في صدرها رغبة في الخروج، ليس لأحد بعينه، إنما لتخرج وحسب، لم تتمكن هذه الكلمات من أخذ شكل كلمات مفهومة أو ذاتٍ ما لها معنى دلالي واضح، لذا اكتفت بدمع ساخن؛ سيعبّر عن كل شيء.. ويأبلغ ما يكون.

عادت كوزمينا إلى الفندق ودخلت غرفتها وأغلقت الباب من خلفها، ووقفت مسندة ظهرها إليه زافرة زفرة وكأنها تقول: وأخيراً. ثم تتقدم وتلقي بنفسها على السرير منكبةً على وجهها.

ألا لعنة الله عليكَ يا بوشينسكي! لا بل عليكَ يا أمانار اللعين!

يا لها من حقيرة تلك الماريا! إنها امرأة لن أحتاج إلى قلب جديد كي أقتلها.

لم تكن كوزمينا شخصية عاطفية، بمعنى أنها لم تكن تلك المرأة الشاعرية التي تحلم بأن يأتيها فارس ما على فرسه الأبيض ثم يعيشان معًا في سعادة أبدية. كل ما هنالك أنها لا تطيق العيش في عالم مادي لهذه الدرجة. إنها لا تعقل أن يكون الإنسان مسلوب الإرادة، تتحكم فيه قوى الكيمياء فتجعل منه طيبًا أو شريرًا. ثم لماذا إذن تختلف

ردودنا كبشر مع نفس الحالات. فلمَ لا يكون كلنا قتلة ساديين؟ أو لمَ لا يكون العكس؟ لو كان الأمر مجرد كيمياء، هي ذات الكيمياء تسري في عقول الجميع.. فلماذا نختلف إذن؟

هي لم تكن تحترم جنس الرجال بشكل عام، فهم بالنسبة لها كأمانار، أو ما هو أسوأ كأبيها! لكنها رغم ذلك لا تستطيع أن تنفي أنه قد يأتي يومًا ما من هو يستحق أن ينبض قلبها مرددًا اسمه.. من لا يكون مجرد قرار عقلي آخر، من تستطيع القول بأنها تعرفه عن ظهر قلب.

هل نستطيع أن نعيش دون قلب؟ لا، فالعقل سيموت بعد توقف القلب بدقائق. لكن الجسد يتمكن من البقاء حيًا بعد موت الدماغ، وهذا ما يسمى بالموت السريري. نعم، قد لا يفيق المرء من الموت السريري أبدًا. لكنه يبقى حياً بطريقة أو بأخرى. قد يكون القلب ما يحمل جوهر ما يسمى بالروح؟ من يدري؟

لكن الدماغ يستطيع العيش أثناء زراعة القلب من خلال ربط الجسد بالقلب الاصطناعي. صحيح، لكن القلب الاصطناعي يقوم بعمل دور مضخة للدم وحسب. ومن غير الممكن أن نعرف التأثير البيولوجي له على شخص واعٍ. قد لا يؤثر شيئاً. ثم لماذا لا يفقد الشخص الذي أجرى زراعة القلب بعضاً من ذاكرته؟ ألم يفقد قلبه؟

ماذا عن الله؟ أيكون الأمر حقًا كما يقولون ليس ثمة إله؟ أيُعقل بأننا مجرد سلسلة من الصدف بعيدة الاحتمال والتي يحدث بأنها حدثت بالفعل؟!

تعضُّ كوزمينا وسادتها من الغيظ. ثم تقوم وتسكب لنفسها بعض الروم قائلة: أقسم أنني بدأت أكره الكيمياء. ثم نبدأ بشرب كأسها بعصبية.

ماريا، في صحتك. بل في صحة الرجال الحمقى، من يؤثرون امرأة جميلة ولا قلب لها على امرأة ذات قلب رائع لكنها قبيحة. في صحة

القلب الذي لا يبدو أن أحدًا يُقدّره حق قدره سواي. أوه بل وفالكيريا أيضًا! يبدو أنها تقدره. ولربما ريجينا وصديقها هاجي. ألم يبدوا... أجل، أجل كانا يبدوان وكأنهما صديقين حميمين فرغم أن هاجي لم يملك ما يمكن أن يُعدّ ذا أهمية فيما يخص بوشينسكي لكنها استبقته ولم يكن ذلك إلا لأنها معجبة به.. نعم، نعم. ثم تشرب المزيد من الروم وتقول: كان بإمكانه أن يعتذر وينسحب، لكنه لم يفعل ذلك لأنه أراد أن يبقى لأنه هو أيضًا معجبٌ بها.. وهو يتوق لقضاء المزيد من الوقت معها، ولا بد... أجل تلك هي حكايتهما لا ريب. ريجينا وهاجي.. هاجي؟ أليس هذا باسم مسلم؟ إذن لا بد من أن هاجي من الترك أو التتار.. لا، لا.. هو من الترك دون ريب.. وفيمَ يهم هذا؟ ثم تضحك، وتقول يبدو أنني ثملت، وتضحك مرة أخرى ملء شدقيها. وتمشي للبار لتسكب لنفسها المزيد من الروم لكنها تجد الزجاجة فارغة، فتقوم بتناول زجاجة أخرى لكنها هذه المرة من الويسكي وتسكب لنفسها كأسًا جديدة.

الحب مرة أخرى، كانت إيلين مثالاً رائعًا على الحب. تعرضت للضرب المبرح في سبيل الدفاع عن حبيبها الخَرِف. بينما كان بودي استغلاليًا، ولربما لم يكن ليظل معها لولا أنه يحتاجها كي يكمل دراسته، فلن يتمكن من تحصيل ما تحتاجه مصاريف دراسة الطب مهما عمل واجتهد في طلب المال. نعم، كما تقول تلك العبارة الشهيرة: إذا أحب الرجل أصبحت المرأة جزءًا من حياته وإذا أحبت المرأة أصبح الرجل كل حياتها.

هل يوجد ذلك الحب الذي لا منفعة فيه إذن؟ هل من الممكن أن تحب إيلين بودي لو لم يكن وسيم الشكل أو لو كان سمينًا جدًا أو لو كان مشوّهًا؟ أما بودي، فلا بد من أن إيلين كانت امرأة رائعة ولا يمكن تضييعها. أي أهمية قد يحتويه ذلك كله؟ ولمَ أشغل نفسي بهم؟ إلى الجحيم آل بوشينسكي. إن كان من بد للذاكرة الخلوية أن ترى النور

فليكـن، سـواء مـع أو بـدون بوشينسـكي.. وإن كان عـن نفـسي فأفضّـل أن تكـون بـدون بوشينسـكي اللعـين.

من الغد سأعود إلى كونستانتسا وليكن ما يكون.

*****

١٠٢
١٠٣
١٠٤

الفصل الحادي عشر
اليوميات

بعد ستة أشهر

مشفى المركز الأوروبي للعناية الطبية - كونستانتسا

كوزمينا في روتينها المعتاد لم يجدّ عليها جديد سوى دخول «فيركا*» صديقها الجديد في حياتها.

لا يختلف فيركا عن بقية علاقات كوزمينا العاطفية، عدا أنه أسمر، وأنها لسبب ما أبقت علاقتها به حتى الآن ولمدة تتجاوز خمسة أشهر، وهذا رقم قياسي يحسب لفيركا.

لا يمكن الإنكار بأن كوزمينا كغيرها من بقية النساء والبشر على العموم، لها رغبات لا بد لها من تلبيتها رغم عقلانيتها.

فيركا من ولاية ترانسلفانيا المتاخمة للمجر، وهو من الأقلية المجرية في رومانيا، ويعمل مع كوزمينا في نفس المشفى أخصائي أشعة، وهو أيضًا أصغر منها ببضع سنوات، كما أنه رياضي.. ويحسن طبخ «الغولاش» ذلك الطبق المجري التقليدي الشهي على قلب كوزمينا. وفوق كل ذلك، هو رائع في الفراش، ماذا تريد المرأة أفضل من ذلك كله؟

ماذا عن قلب كوزمينا؟ هل تمكن فيركا الوسيم من ملئه كما تمكّن من ملء كل ثغرة في حياتها؟

حسنًا، لم يفعل. لكن، من عساه يبالي بذلك؟

تصرخ كوزمينا عاليًا: أنا أبالي بذلك. لقد أمرتكم مرارًا بألا يعبث أحد بالبريد خاصتي.

لم يكن ثمة مبرر لنوبة الغضب العارمة التي مرت فيها لتوّها.. لكن من المتوقع أن يحدث ذلك في وقت معين من الشهر، أو على الأقل

---

* فيركا هو اللفظ الروماني للاسم المجري «فيركو» ويعني «الفرنسي».

هذا ما توقعه العاملون معها.

تمسك كوزمينا حزمة البريد العاجلة «Fedex» وتقوم بفتح الطرد، لتجد دفترًا أسود اللون عليه نقش من الخارج بحرفي «GB». ألقت الطرد على مكتبها ثم بدأت بالتفكير بفيركا. هل هذا ما أرادته كوزمينا لنفسها؟ هل هذا هو ما اختاره قلبها؟ لا تستطيع أن تقول بأنه يجعل قلبها ينبض هاتفًا باسمه. هل رضخت كوزمينا لنفوذ الكيمياء في عقلها؟ هو وسيم دون شك، جسد رياضي ممشوق، أسمر اللون، رجولي، رغم عينيه الخضراوين السخيفتين لكن لا بأس به.

حسنًا، إنني لا أصغر في العمر كلما مضيت قدمًا. ولا بد لي من الاستقرار. هي حاجة إذن؟ بالتأكيد هي كذلك. إذن لربما كان تورك محقًا، وليس ثمة ما... ولم تكمل كوزمينا الكلمة، بل جحظت عيناها وهي تقول: جورجي بوشينسكي! «GB» يا إلهي!

تمد يداها تبحثان عن الطرد مجددًا وتجده، وتقوم بفتح الدفتر وتتأكد من أنه فعلاً دفتر يوميات جورجي بوشينسكي. تضعه جانبًا مرة أخرى، وتتفقد الطرد مرة أخرى لتجد فيه ورقة مطوية، فتقوم بفتحها، كانت ورقة مطبوعة:

«عزيزتي د. دالكا:

أعلم أنني كنتُ جِدّ سخيفة، وأنك تملكين كل الحق في أن تغضبي مني. لهذا كتبتُ لكِ هذه الرسالة وأرسلتها مع الطرد الذي أعلم جيدًا بأنكِ ستقدرينه حق تقديره. أعلم بأن هذا زمن لم تعد تُكتَب فيه هكذا رسائل. فهذا زمن السرعة والبريد الإلكتروني، لكنني وددتُ أن تصلكِ رسالتي مع الطرد لا قبله.. كما أنني ارتأيتُ أن تكون رسالتي هذه حميمية قدر الإمكان. كنوع من التعويض».

تقول كوزمينا في نفسها: يا للشاعرية!

«كنتِ محقة؛ لربما كنت أعيش حالة من النكران. تقول كوزمينا في نفسها: عجبًا! أليست تلك هي ذاتها التي ليس ثمة أدلة علمية كافية

عليها؟ ثم تكمل القراءة: كنتُ أتوقع رجوعه إليّ يومًا ما.. لكنه لم يفعل. أعلم أنكِ ربما تقولين في نفسكِ بأنني أنكرت أن يكون لمراحل الحزن الخمس أي أساس من الصحة علميًا. لكن ألا يحدث أحياناً بأن يكون العلم مخطئًا؟».

هل هي قارئة أفكار؟! تحدّث كوزمينا نفسها.

«أردتُ أن أعترف لكِ بأني أحببته. أحببته بكل ما أوتيت من قوة وطاقة للحب وعلى الحب. حاولتُ أن أكون له كل شيء. كان يبحث عن نسخة مؤنثة من شخصيته الباردة.. فكنتُ له كما أراد. وأعلم أن هذا أمر يجعلني مثيرة للشفقة. ظللتُ في أحضانه عامين كاملين، نتشارك الفراش.. ونمارس معجزة الطبيعة.. دون أن أسمع منه كلمة حب واحدة. بل إنني حرّمتُ كل كلمات الحب على نفسي كي أرضيه. لو تعلمين كم مرة فكّرتُ فيها في الانفصال عنه. لكنني كنتُ أرى وكأنني مشدودة إليه بحبل لا مرئي.. نعم، أملك الحرية في الابتعاد عنه، إنما لدرجة معينة فقط، وذلك حتى يشتد الخيط على عنقي ليخنقني، فأعود إليه، فقط كي أتنفس.أخشى أنني لستُ سوى امرأة أخرى.. ولم أكن سوى مجرد امرأة أخرى.. لم أكن سوى تجسيدًا لتلك الغريزة البدائية في عقل كل رجل.. أن يكون معبود امرأة ما، ولا بأس لو كان معبود قطيع من النساء.. فسيزيد ذلك من فرصه في التكاثر. ونسير نحن الحمقاوات نفتح ذراعينا وساقينا لذلك الإله.. زيوس* .. وفي داخل كل رجل ثمة زيوس.

إننا معشر النساء نحمل حاجة عاطفية أكبر من أن تُشبع بالاتصال الجسدي، قد تكفينا قبلة حميمة صادقة على اتصال جسدي كامل الأركان إن كان يخلو من الحب.. إن الرجال لا يفهمون هذا ببساطة، وقد صوّر لهم خيالهم المريض بأن الفحولة تقتضي منهم أن يوجعوا

---

* زيوس: إله جبل أولمب لدى الإغريق والملقب بأبي الآلهة والبشر.

المرأة، فإن لم يكن الوجع جسديًا، كان وجعًا عاطفيًا.. ولربما لهذا السبب تنصرف بعض النساء للشذوذ على أن ترتبط برجل من هؤلاء.

كنتِ محقة؛ لستِ بحاجة إلى أن تكوني أخصائية نفسية كي تعلمي ما تشعر به امرأة مفجوعة.. يكفيكِ كونكِ امرأة.. وكأن الفاجعة شيء نعرفه نحن معشر النساء بالفطرة، وأقسم أنني مفجوعة كالعذراء عند صلب ولدها المسيح. لا شيء أفدح فجيعة من أن تشعر المرأة أنها لم تكن ذات قيمة.. أي قيمة على الإطلاق.. عند من يساوي عندها كل شيء.. كل شيء على الإطلاق.

أشكرك، لأنكِ شعرتِ بي.

حظًا طيبًا.

الآسفة جدًا: ماريا».

حسنًا، لقد ذاب الثلج عن أميرة الجليد. هي تملك قلبًا رغم كل شيء. هي امرأة رغم كل شيء. وكما تستطيع المرأة أن تحيي قلب رجل أو تميته، يستطيع الرجل أن يشكّل قلب امرأة كما يشتهي وأن يحطمه عندما ينتهي منه، وبكل بساطة.

يبدو أن جورجي هذا ليس سهلاً على الإطلاق.. لقد حطّم أميرة الجليد ماريا تمامًا. كم هم ضحاياك كثر يا عزيزي جورجي! إذ لم يقتصر الأمر على أخيك.

حسنًا، لنرى.. ماذا عساكَ تخبئ لي في دفتر يومياتك؟

لم تكن اليوميات يوميات بالمعنى الحقيقي للكلمة، إنما كانت أشبه ما تكون بدفتر ملاحظات شخصي لجورجي.. تحتوي بعض صفحاته على معادلات كيميائية، تشريح تفصيلي لبعض أجزاء الجسم، بعض الأحداث التاريخية في حياة فلاد الثالث وأخيه رادو الوسيم.

كان هناك بعض الملاحظات الأخرى فيما يخص الذاكرة البشرية.. وقد بدت لها مثيرة للاهتمام:

«إن الذاكرة ليست توالدية -بمعنى أنها لا تنتج صورة طبق الأصل

تمامًا مما عايشناه- ولكنها متجددة. ما تسترجعه أذهاننا هو غالبًا مزيج مشوّش من الذكريات الدقيقة، بالإضافة إلى ما يتوافق مع معتقداتنا واحتياجاتنا ومشاعرنا وهواجسنا. هذه الهواجس مبنية بدورها على معرفتنا لأنفسنا، وعلى الأحداث التي نحاول أن نسترجعها، وعلى ما عايشناه في المواقف المماثلة».

وملاحظة أخرى:

«من ثَمّ، بإمكان وجه لاقيناه في الشارع أو رقم هاتف تم سماعه، الاختفاء بسرعة وإلى الأبد، ما لم نقم بمجهود واعٍ لتذكره».

وأخرى:

«وفي الذاكرة الكلية، يُفترض مشاركة الذاكرة بين كل أفراد الجنس الواحد.. وعليه فإن أي معرفة إضافية تضاف للفرد فإنها تضاف لكل أفراد الجنس في ذات اللحظة».

تتعجب كوزمينا من سبب وجود تلك الملاحظات التي تبدو عشوائية لها في يوميات جورجي. ما الذي أثار اهتمامك بها يا بروفيسور بوشينسكي؟ تتساءل كوزمينا.

- هل ستطيلين البقاء هنا؟

كان عامل الأمن. تجفل كوزمينا من السؤال وصاحبه الذي يعتذر: أنا آسف. كنتُ أتفقّد المكان، فوجدت ضوء مكتبك مضاءً فظننتكِ قد نسيته.

- لا لا يهم، أنا راحلة الآن.

تقرر كوزمينا أن تعود إلى البيت وتتمهل في قراءة اليوميات، علّها تجد أمرًا ما له دلالة واضحة تفيدها.

*****

الفصل الثاني عشر
بيت كوزمينا

كونستانتسا

تجلس كوزمينا في غرفة المكتب، تضع أمامها دفتر ملاحظات بوشينسكي وإلى جواره فنجان كبير من القهوة.

هذا أمرٌ يحتاج إلى تركيز. تحدّث نفسها.

تحاول كوزمينا قراءة الملاحظات المكتوبة عن المعادلات الكيميائية، فلم تفهم شيئًا، خصوصًا أنه لم يكن ثمة أي شرح مكتوب عنها.

انتقلت منها إلى شيء تعرفه جيدًا.. تشريح الإنسان، ووجدت مقاطع تشريحية متقنة، ولو أنه يبدو عليها أنها لم تأخذ الكثير من وقته، فقد بدت الخطوط وكأنها رُسمت على عجل. لكنها ككل تترك انطباعًا بمعرفة تامة للتفاصيل التشريحية لأعضاء كاليد، القدم، العين.. بدا وكأنه إما يتدرّب وإما يختبر نفسه. والسؤال هنا: ما الذي يجعل من كيميائي محترف أن يغدو مهتمًا بالتشريح البشري؟

ثم تذهب إلى تلك الملاحظات عن الذاكرة. فتعيد كوزمينا قراءة الملاحظات الثلاث.. تبدو لها الملاحظتان الأولى والثانية مترابطتين.. بينما تغرد الثالثة في وادٍ آخر وحدها.

لربما أحتاج إلى استشارة مختص.. تفكر كوزمينا من فورها في توروك.

تبدو فكرة جيدة. تحدث نفسها.

تتناول كوزمينا هاتفها لتحادث توروك.

- مرحبًا د. دالكا، يسعدني سماع صوتك ثانية بعد كل هذا الوقت.

تبتسم كوزمينا وتقول في نفسها ها قد بدأنا ثانية.

فيكرر توروك: آلو.. آلو.. هل تسمعينني؟

- أوه! نعم نعم د. توروك. أردتُ أن أسألك عن صديقك بوشينسكي.

- نعم، بالطبع بوشينسكي صديقي اللدود. تفضلي.

- هل سبق أن حادثك فيما يخص الذاكرة، أو حدّثك عن تشوّش ما

في ذاكرته؟

يجيبها توروك: عدا تلك الذاكرة الجديدة، لا.

لم تجب كوزمينا، بل شردت بأفكارها للحظات.

- آلو.. آلو.. هل أنتِ بخير؟

تجيبه كوزمينا: نعم نعم أنا بخير.. حسنًا، هل.. هل أستطيع أن أسألك بعض الأسئلة؟

- بالطبع، هل تودين أن نلتقي في ساحة قوس النصر مرة أخرى؟

- لا د. توروك، لقد غادرت منذ أشهر عائدة إلى كونستانتسا.

- أها، لقد توقعت. وماذا أعادنا لبالك ثانية؟

- لقد وصلني طرد من ماريا صباح اليوم. وهو عبارة عن دفتر يوميات د. بوشينسكي. ووجدتُ به ملاحظات عن الذاكرة.

- هلا قرأتِ بعضها لي؟

- هم ليسوا كثر.. إنها ثلاث ملاحظات:

هذه الأولى:

«إن الذاكرة ليست توالدية -بمعنى أنها لا تنتج صورة طبق الأصل تمامًا مما عايشناه- ولكنها متجددة. ما تسترجعه أذهاننا، هو غالبًا مزيج مشوّش من الذكريات الدقيقة، بالإضافة إلى ما يتوافق مع معتقداتنا واحتياجاتنا ومشاعرنا وهواجسنا. هذه الهواجس مبنية بدورها على معرفتنا لأنفسنا، وعلى الأحداث التي نحاول أن نسترجعها، وعلى ما عايشناه في المواقف المماثلة».

- حسنًا، هذا وصف للمفهوم العلمي الحديث عن الذاكرة البشرية. والثانية؟

- «من ثَمّ، بإمكان وجه لاقيناه في الشارع أو رقم هاتف تم سماعه، الاختفاء بسرعة وإلى الأبد، ما لم نقم بمجهود واعٍ لتذكره».

- هذا الأساس الذي يمكن استنباطه في الأشياء عند فهمنا للمفهوم العلمي الحديث للذاكرة البشرية.

- أتعني أن الأصل في الأشياء هو النسيان؟

- نعم، يمكنك قول ذلك. والثالثة؟

- «وفي الذاكرة الكلية، يُفترض مشاركة الذاكرة بين كل أفراد الجنس الواحد.. وعليه فإن كل معرفة إضافية تضاف للفرد فإنها تضاف لكل أفراد الجنس في ذات اللحظة».

- حسنًا، هذه لا شأن لها فيما سبق.

- وماذا تعني؟ أقصد، هل يوجد شيء كهذا حقًا؟

- لا لا عزيزتي.. الذاكرة الكلية هي ليست أكثر من فرضية عن إمكانية وجود ذاكرة كتلك التي في كتب الخيال العلمي.

- وماذا تعني بأن كل معرفة إضافية تضاف للفرد فإنها تضاف لكل أفراد الجنس في ذات اللحظة؟

- حسنًا، كي أقرّب لكِ الأمر، لنفرض أن الذاكرة الكلية موجودة فيما بيننا كبشر.. فإن كانت كذلك حقًا، عندها لاستطعنا الآن أن نعرف ما يفكّر فيه جورجي.. وأستطيع أن أقول بأنني سأملك معرفة كل ما تعرفينه عن القلب تمامًا، كما ستعرفين كل ما أعرفه في علم النفس.

- عجبًا!

- لكن ما الرابط بين هذه الملاحظات؟ هل تحوّل جورجي إلى كائن فضائي؟!

يقول توروك هذه الملاحظة ثم يضحك. تسكت كوزمينا للحظات فيما تفكّر.

- آلو.. آلو.. هل ما زلتِ هنا؟

تجيبه كوزمينا: نعم، إنما أفكر للحظات.

ينزعج توروك فيقول: هل من خدمة أخرى؟

- لا، أشكرك.

- حسنًا، حظًا موفقًا.

يقول توروك تلك العبارة ثم يغلق الهاتف.

لا يمكن لتوروك إنكار حقيقة أنه معجب بكوزمينا، وقد أوجعه رحيلها بتلك السرعة وتلك الطريقة.. ولربما عليَّ أن أوضّح بأنه معجبٌ بكوزمينا تمامًا كما يمكن لأي رجل أن يفعل.. لكن رجلاً كتوروك لا يمكن أن يفصح بحقيقة ما بداخله بشكل مباشر.. فعادة يطرح ما يتصل بمشاعره بمزاح يضرب فيه على أوتار الجد. ورغم أنه قد افتقد كوزمينا في اليوم التالي من لقائهما في ساحة قوس النصر ثم بيت عائلة بوشينسكي لكنه لم يكن ليتصل بها. لأنه لا يكون توروك إن فعل. أولا يميل الرجال إلى ذلك بالعادة؟!

ولكم كان سعيدًا بحق لسماع صوت كوزمينا! لكن شرودها وانهماكها بموضوع جورجي قد سلب سعادته تلك. وكما هي عادته دومًا قد أنهى الموضوع بعبارة واحدة: فلتذهب هي وجورجي إلى الجحيم.. ولا يضيرني إن اجتمعا في جحيم واحد.

تنكبّ كوزمينا مرة أخرى على دفتر بوشينسكي بعد أن تجاوزت موضوع الذاكرة.. وبدأت بتمحيص ما هو مكتوب عن فلاد الثالث وأخيه رادو الوسيم.

ومن بين كل الملاحظات لفتت انتباهها هذه الملاحظة:

«خلال فترة الاحتجاز السياسي لفلاد وأخيه رادو لدى الأتراك تعلّما المنطق والقرآن واللغة التركية بالإضافة إلى الأدب. وعلى الرغم من التبادل الثقافي المتزايد بين دولة أبيه والأتراك لكن فلاد لم يكن سعيدًا بوجوده بين الأتراك، وقد أبدى استياءه في العديد من المناسبات، كما أبدى غيرة كبيرة من أخيه رادو، الذي حصل على لقب الوسيم. كان رادو مهذبًا، وكسب ودّ ابن السلطان التركي مراد الثاني محمد فأصبحا صديقين. وعلى العكس تمامًا كان فلاد متمردًا طوال الوقت وتعرّض للعقاب كثيرًا على وقاحاته المتكررة. ويقال بأن تلك التجارب المؤلمة له والتي خضع لها بين الأتراك هي ما جعلت منه ذلك الرجل السادي المتعطّش للدماء، ولربما هي المسؤولة عن تلك الطريقة الفريدة التي

اشتُهر باستخدامها في معاقبة خصومه، الخوزقة».

تندهش كوزمينا لما قرأت وتعيد القراءة مرارًا.. غيرة كبيرة من أخيه رادو؟ وكان رادو مهذبًا بينما كان فلاد متمردًا؟ إذن هو حقًا كان يتتبع ذلك الشبه بين حكايته مع أخيه وحكاية فلاد مع رادو الوسيم.

في هذه اللحظة بالذات يدق هاتفها مدويًا، إنه فيركا. ترد كوزمينا على المكالمة:

- آلو كوزي.. كيف حالك؟

تجيبه كوزمينا: نعم فيركا، ما هنالك؟

- لا شيء، كنتُ أفكر بالمجيء إليك هذه الليلة.

- الآن؟ أقصد الليلة؟

- نعم الليلة. هل لديكِ ارتباطات أخرى؟

تفكّر كوزمينا، حسنًا هو رجل ولديه رغباته الخاصة كذلك. وتبدأ بالتفكير في كم هو تافه كي يهاتفها فقط من أجل... لكن، وماذا إن كان يملك رغباته الخاصة؟ ألا تملك الكلاب ذلك أيضًا؟ حسنًا، إذن فلتكن ليلة وداعِيَّة سيرحب بها دون شك، فننتهي من أمره وننتقل غدًا إلى بوخارست لتقصّي أمر بروفيسور بوشينسكي.

- آلو.. كوزي.. هل ما زلتِ هنا؟

- نعم فيركا.. لا، ليس لديّ ارتباطات.

*****

الفصل الثالث عشر
مكتب توروك

جادة باندوري - بوخارست

كانت ليلة لا بأس بها لكوزمينا. نعم، انفصلت عن فيركا. لكن ثمّة أمرًا ما لا يريحها حيال ذلك.

تطرق باب مكتب توروك وتدخل مبتسمة، وتقول: لقد طرقتُ الباب هذه المرة. يبتسم توروك رغمًا عنه ويقول: نعم فعلتِ، يا للمفاجأة! هي مفاجأة بالفعل، قدومكِ وتشريفي في مكتبي المتواضع دكتورة دالكا. ويشير إليها بالجلوس.

تجيبه كوزمينا: في الواقع، لم أكتفِ بما تحدثنا به في الهاتف، كان لا بد لي من جلسة مطوّلة معك.

- نعم، أرحّب بذلك.. عندي محاضرة بعد ربع ساعة، نستطيع احتساء بعض الشاي الآن، ثم سأكون رهن إشارتك بعد المحاضرة.

وبالفعل، سكب توروك لهما بعض الشاي. وبدآ في تبادل بعض وجهات النظر، التي لم تكن ذات قيمة كبيرة ثم رحل توروك لمحاضرته. وغادرت كوزمينا أيضًا متوجهة إلى المكتبة للبحث قليلاً عما قرأته بالأمس.

قامت كوزمينا بجمع كل الكتب التي تحدثت عن فلاد الثالث. فوجدت بعضها قد تجاهل تمامًا تلك العبارات التي وجدتها في ملاحظات بوشينسكي.. بينما وجدتها مذكورة في كتاب أو اثنين. تقدمت منها أمينة المكتبة قائلةً: هل تواجهين مشكلة؟ تنظر إليها كوزمينا متسائلة.. فتفهم أمينة المكتبة نظراتها تلك وتجيب: أنا أمينة المكتبة ولم أركِ هنا مسبقًا، لذا افترضتُ أن بإمكاني مساعدتكِ في أمر ما.

- أوه! يا للطفكِ عزيزتي!

ترد كوزمينا ثم تردف: هل تعلمين شيئًا عن فلاد الثالث؟

فترد أمينة المكتبة: أوه! دراكولا! أجل بكل تأكيد. عمّ تبحثين

بالضبط؟

فأخبرتها كوزمينا عن تلك الفقرة في يوميات جورجي.. ففكرت أمينة المكتبة قليلاً ثم قالت: انتشرت أخبار قسوة دراكولا في جميع أنحاء أوروبا.. وقد سعى ملك المجر لتعزيز تلك السمعة لتأكيد صحة قراره بسجنه من قبل.. لكن تلك الأخبار لم تكن مبنية على خرافة.. فقد كان دراكولا متوحشاً سادياً بالفعل.. ومن المرجح أن تكون تلك الأعوام التي قضاها في كنف السلطان هي السبب. لا أحد يعلم على وجه التحديد سبب الغيرة الشديدة التي ملأت قلب دراكولا ضد أخيه، لكنها كانت وحسب، وهي ذاتها سبب كراهيته الشديدة للأتراك الذين فضّلوا أخاه عليه شخصيًا. وكأنه في حربه لهم كان يحارب أخاه.

- إذن هو صحيح؟

فتجيبها أمينة المكتبة وتعلو وجهها الابتسامة: هي مُرجَّحة، لكن لا أحد يملك معلومات قاطعة عن تلك الفترة من التاريخ. فالمؤرخون القوميون سواء الرومان أو البلغار يميلون لاعتبار دراكولا بطلاً قوميًا.. ولكن البعض منهم وغيرهم يعتبرونه وحشياً ساديًا طاغية.. لم يسعَ إلى شيء في حربه للأتراك سوى الثأر لنفسه.

- ولمَ لا تقولين بأنه بطل؟

فتجيبها الأمينة: أنا لم أقل ذلك. لكنني لا أنكر أني لستُ مقتنعة بأنه سعى لحرب الأتراك فقط من أجل استقلال والاشيا، فقد كان الأتراك هم من أعادوا له مُلكه في المرة الأولى.

- ماذا قلتِ؟

فتكرر الأمينة: لقد أعاد الأتراك له ملكه في المرة الأولى. أترين؟ عندما قُتل والده فلاد الثاني على يد النبلاء المتحالفين مع ملك المجر، أطلق الأتراك سراح دراكولا مع حامية تركية واستعادوا له ملكه. ثم انسحبت الحامية بعد أن ضمنت عودة والاشيا لدفع الجزية. لكن حلفاء ملك المجر لم يلبثوا أن هاجموا والاشيا وهُزم دراكولا وفرّ إلى مولدافيا.

- أين أجد هذا الكلام؟

تشير لها أمينة المكتبة إلى أحد الكتب أمامها. فتفتح كوزمينا الكتاب عن غير هُدى باحثة فيه.. فتبتسم الأمينة من جديد وتسأل: هل من أي شيء آخر؟ فتنظر إليها كوزمينا من جديد وبابتسامة عريضة تقول: لا، وأشكرك جزيلاً على ما تفضّلتِ عليَّ به.. فترد الأمينة بلباقة: أبدًا.. هذا واجبي.

تذهب أمينة المكتبة بينما تتابع كوزمينا بحثها، وفعلاً تتأكد مما قالته لها أمينة المكتبة. هكذا الأمر إذن، هي حكاية صلاح وجورجي مرة أخرى عبر التاريخ. لعل هذا يفسر سر اهتمام جورجي بها. لكن لماذا الآن، أو بالأحرى، لماذا بعد عملية الزراعة؟ ما الذي حدث كي يكتشف هذا التشابه فجأة.

تتفقد كوزمينا الساعة لتجد أن الوقت المحدد للمحاضرة قد انتهى فتنهض كي تعود لمكتب توروك.

تلاقيا في الممر المؤدي إلى مكتب توروك وسارا معًا باتجاهه.

- أتمنى أن قضيتِ وقتًا لطيفًا في المكتبة.

- وكيف عرفت أني كنتُ هناك؟

- حسنًا، لم يكن الأمر صعبًا.. إلى أين عساكِ تذهبين سواها؟

ويبتسم.

يفتح لها باب المكتب لتدخل ثم يدخل وراءها.

يتساءل توروك: إذن، أين كنا؟

- كنا نتحدث عن الذاكرة.

- نعم، صحيح. فكرتُ في أمر الملاحظات، وأرى أن تسلسل الأفكار هو كالتالي: إن الأصل في الأشياء التي تحدث لنا هو النسيان.. إلا إن بدا لها أهمية ما لدينا فنقوم بتعليم العقدة العصبية التي تشير لهذه الذكرى إن جاز لنا القول. إن الذاكرة البشرية ليست فوتوغرافية.. إنما هي أقرب للانطباع.. وعليه فلو أني في طفولتي وفي يوم ربيعي جميل

قد وقعتُ عن دراجتي الحمراء أمام قطة مارة في الشارع فجرحتُ ركبتي جرحًا بليغًا.. وقد ضحك عليَّ أصدقائي الحمقى لذلك.. فإنني لو تمكنتُ من تذكّر هذه الحادثة اليوم، فإنني قد أتذكر أنه كان يومًا حارًا للغاية، أو يومًا عاصفًا، تعثّرتُ بحجر في الطريق الوعر الذي اضطررتُ لسلوكه كي أتفادى تلك القطة الحمقاء التي كدتُ أن أدوسها فوقعتُ عن دراجتي السوداء.

- ولماذا تغيرت بعض التفاصيل في ذكراك؟

- لأن الذاكرة البشرية لا تحتفظ بكل التفاصيل، فهي تذوي مع الزمن.. ويبقى الأثر النفسي العالق عنها في الذاكرة، فتعيد تشكيل المشهد بناءً على ما خلّفته تلك التفاصيل بالاتفاق مع الحادث في نفسك.. فتصبح القطة هي السبب لأن المرء يميل بالعادة إلى لوم الآخرين على زلاته الشخصية.. ويصبح الطقس متطرفًا كي يبرر الزلل أو كي يكسب المرء تعاطف امرأة جميلة أمامه.

ويبتسم بخبث، فتضحك كوزمينا وتقول: كم أنت سخيف!

فيردف توروك: وتصبح الدراجة سوداء لأنني أكره اللون الأسود.

- لماذا؟

- لأنه... مممممم.. لأنه لون غبي!

- لا، قل لي لمَ؟

- حسنًا، لأن الأسود ليس لونًا حقيقيًا.

- ماذا تعني؟

- إنه اللا لون.. إنه نقيض اللون.. إن الأسود هو العدم، هو اللا حياة.. إن الكون أسود لأنه ميّت.

- لكن المريخ ميتٌ أيضًا وهو أحمر.

يجيبها فورًا: ذلك لأن المريخ يحتوي على الكثير من الحديد.

فتضحك كوزمينا ملء شدقيها وتقول: أنت لا تُعقل.

لا يمكن لتوروك أن يُقرّ بأنه أخطأ، فيلجأ فورًا للمراوغة والمزاح

كتقنيـة تثبـت فاعليـة لا بـأس بهـا أحيانـًا.

- هـاكِ شيئًا مثيرًا، لقـد بحثـتُ في هـذا الأمـر، ووجـدتُ أن هنـاك حـالات لا بـأس بهـا مـن القضايـا الجنائيـة الـتي أديـن فيهـا المتهـم بنـاءً عـلى أقـوال الشـهود، ثـم تبـين فيمـا بعـد بالدليـل القاطـع بـأن المتهـم بـريء. وهـذا يـدل عـلى أن الذاكـرة البشريـة لا يُعـوّل عليهـا كثـيرًا.

- ماذا تقول يا رجل؟

تتساءل كوزمينا بدهشة.

- انتظري، هناك المزيد. شاي أولاً؟

- أجل، أرجوك.

يسـكب لهمـا كويـن ثـم يكمـل: في الواقـع، كان فرويـد يراهـن كثـيرًا عـلى وجـود الذاكـرة الفوتوغرافيـة، عـلى عكـس مـا يعتقـد العلـم الحديـث الآن، وهـو صاحـب الاعتقـاد السـائد بأنـه مـن الممكـن مـع تحفـيز معيّـن للذاكـرة أن نتذكـر أشـياءً مشـينة حدثـت لنـا في الطفولـة، وكمـا تعلمـين عنـد فرويـد كل شيء يعـود إمـا للطفولـة وإمـا للجنـس.

- لا تخرج عن السياق.

تنبهه كوزمينا باسمة.

- عفوك سيدتي.

ثـم يـردف: لقـد أضـاف فرويـد التنويـم المغناطيـسي كخاصيـة لتنبيـه الذاكـرة.

- جميل.

لكـن تـوروك قـال: حسـنًا، هـو ليـس جميـلاً، لأن فرويـد كان مخطئًـا. لأنـه مـن معرفتنـا بالذاكـرة كمـا شرحـتُ لـكِ فيمـا سـبق، وأنهـا انطباعيـة، فمـا تـم نسـيانه عـلى الأرجـح قـد ذهـب إلى الأبـد، ومـا تلـك الأشـياء الـتي يدّعـي النـاس بأنهـم قـد تذكروهـا إلا بسـبب مـا يقحمـه المنـوّم المغناطيـسي لهـم في ذاكرتهـم. إن الأمـر لا يكـون مقصـودًا، بـل هـي أشـياء انطباعيـة في ذاكرتهـم، كل مـا يحـدث هـو أنـه يُسـاء تأويلهـا.

إلى أين تريد أن تصل في الحديث؟ تتساءل كوزمينا.

- أظن أن جورجي فهم ما يحدث معه، وكان يحاول أن يجد له تفسيرًا. فقرأ في الذاكرة.. وكتب هذه الملاحظات الثلاث كخلاصة.

- حسنًا، والملاحظة الثالثة؟

- لقد بحثتُ أيضًا في أمرها ووجدتُ أن برام ستوكر الروائي الآيرلندي الشهير قد قام بوصفها دون أن يذكر بشكل صريح مصطلح «الذاكرة الكلية»، في روايته «دراكولا» فقد كان يتحدث فيها عن كون مصاصي الدماء يملكون ذاكرة مشتركة فيما بينهم.

تعلّق كوزمينا: هذا يؤكد بأنه كان يفكر في تفسير لما يحدث معه.

فيقول توروك: نعم، على الأرجح. ثم يسألها: هل معكِ الدفتر؟

- نعم، أحضرته معي. هاك.

يمد توروك يده ليمسك الدفتر ويبدأ في القراءة للحظات. وبعد دقيقتين، نظر إليها وقال: لِمَ لم تخبريني عن هذه؟

- عمّ تتحدث؟

- «كانت بعض القبائل القديمة تأكل قلوب أعدائها لظنها بأنها إن فعلت فسيحصل أفرادها على شجاعة عدوهم بهذه الطريقة».

كانت هذه العبارة مكتوبة بين قوسين، وما يثير الرعب هو ما كُتِب إلى جوارها، «لا تنفع». لم تصدق كوزمينا ما تراه بعينيها. ماذا يعني بـ«لا تنفع» بحق الجحيم؟!

هل جرّب جورجي أكل لحم بشري؟ تتساءل كوزمينا.

يفكّر توروك لبرهة ثم يقول: لا أعتقد أنه من الممكن أن ينجرف جورجي في هذا الأمر لهذه الدرجة. لكن هذا يوضح أمرًا مهمًا بخصوص هذا الدفتر.

- وما هو؟

- يبدو أن جورجي العزيز كان يفكّر تمامًا كما نحن نفكر الآن، ولربما وصل بتفكيره إلى الذاكرة الخلوية. ولا أستبعد أن يكون الآن في بحث

عنـكِ.

- لكن لمَ أكل اللحوم البشرية؟

- ألـم تخبرينـا أنـا وإيلـين بـأن نقـل خلايـا مـن جسـد إلى آخـر قـد ينقـل معـه بعـض الذكريـات كذلـك؟

- نعـم، لكـن هـذا بمعـنى الزراعـة أي إعـادة ربـط تلـك الخلايـا كخلايـا حيـة في داخـل الجسـد الجديـد.. وليـس عـن طريـق أكلهـا وهضمهـا لأن ذلـك سيدمر الذكريـات بداخلهـا أيضًـا.

- نعم، لكن جورجي حتمًا فكّر في الأمر.

- أجل، جائز.

حسنًا، وإلى ماذا يوصلنا ذلك الآن؟ تتساءل كوزمينا.

لا بـد لنـا مـن أن ننتظـر لأنـني أعتقـد بأننـا سنسـمع مـن جورجـي قريبًـا. يجيبهـا تـوروك.

- وما الذي قد يجعله يبحث عني؟

- هو الآن يعتقد بأن الدفتر لا يزال مع ماريا.

- أوه! صحيح.

- بمناسبة أكل لحوم البشر، هل تودين تناول بعض الطعام؟

يتساءل توروك. فتضحك كوزمينا وتقول: أجل، بكل تأكيد.

*****

١٢٨
١٢٩
١٣٠

الفصل الرابع عشر

المطعم

جادة باندوري - بوخارست

رغم خيبة أمل توروك بكوزمينا في السابق لكنه كان يمكن استشعار اعتدال مزاجه. وفي واقع الأمر هو ليس بالرجل الذي من الممكن أن يتكدّر مزاجه بسهولة، لكن لنقل بأن ذلك الشعور بالانزعاج قد ولّى، وذلك الجحيم الذي تمناه لكوزمينا وجورجي قد برُدَ، حتى أصبح من الممكن أن يذهب الناس إليه في رحلات!

أخذها توروك إلى مطعم راقٍ في القطاع السادس، وبالتحديد في روزو، وكان المطعم مطلاً على بحيرة موري.. وكالعادة، كان منظرًا رائعًا.

طلب توروك زجاجة فاخرة من النبيذ الأبيض، قبل أن يبتّ في أمر الطبق الرئيسي. وبينما كانا كلٌ ينظر في لائحة الطعام كان توروك قد أصبح في عالم آخر. ألا تحدث تلك الأشياء أحيانًا، عندما تكون مع «أحد ما» في مكان خاص، تتمنى لو أن هناك زرًّا لتوقيف المشهد كي يستمر للأبد؟ عندما كان توروك ينظر في لائحة الطعام كان فيما يبدو يبحث عن ذلك الزر.

تختار كوزمينا ما تريده ثم تضع اللائحة على الطاولة.. وتنظر إلى توروك الذي ما يزال يبحث جاهدًا عن ذلك الزر العجيب.

يبدو أنكَ ستلتهم اللائحة! تقول كوزمينا في مرح.

فيضحك توروك ويقول: لا أستطيع، فأنا أتبع حمية أتكينز*.

فتضحك كوزمينا ملء شدقيها. لمَ أنتَ لطيف معي إلى هذا الحد؟ تتساءل كوزمينا.

فيقول توروك: أنتِ تحاولين مساعدة صديقي. ولذا واجبي أن أساعدك.

---

* حمية غذائية تعتمد على تناول البروتينات وتجنب الكربوهيدرات.

- لكنك تعتقد بأن فرضيتي مجرد هراء، أليس كذلك؟
- في الواقع، هي ليست هراء بل ترهات.
فتضحك كوزمينا.
- إذن أنتَ تعتقد كما يعتقد صديقك فيما يخص الحب؟
تتساءل كوزمينا. ودون أن ينظر توروك إليها يقول: الحب كلعبة قمار.. لربما يكون أشبه بلعبة «بلاك جاك» يحتاج من المرء أن يتحلى بحدس جيد ليعرف متى يطلب المزيد ومتى يتوقف.. متى ينسحب بهدوء ليحافظ على ربحه أو ليقلل من خسائره.. أو على أقل تقدير ليحافظ على ما تبقى له من كرامة.
- إذن، أنتَ تقرّ بوجود ما تسميه حدسًا؟
- هو إيمان وليس معرفة عزيزتي.. أي أنني لا أستطيع أن أثبت لكِ وجود الحدس.
حسنًا، وما يخبركَ حدسُك عني؟ تتساءل كوزمينا بخبث.
- هو لا يقول شيئًا.
- إذن أنتَ لا تصغي له كما يجب.
ينظر توروك إليها لبرهة، ويضع لائحة الطعام على الطاولة ثم يقول: هل أخبرك عنكِ قليلاً؟
- أرجوك.
- حسنًا، أنتِ فتاة جميلة.
تضحك وتقول: حقًا؟ أخبرني شيئًا لا أعرفه.
- لا تتعجلي عزيزتي.. أنا أحمّي فقط.
تضحك مرةً أخرى ثم تقول: حمِّ كما شئت وتابع من فضلك.
- أنتِ فتاة قوية.. لكنكِ هشّة من الداخل، لربما تجعلين حياة الكثيرين جحيمًا في العمل لكنكِ عندما تكونين وحيدة في فراشك كل ليلة تبكين نفسك حتى النوم من فرط الوِحشة. تلك القسوة والشراسة التي تظهرينها ما هي إلا قشرة تكتسين بها كنوع من الحماية لا أكثر.

لم تستطع كوزمينا أن تخفي انزعاجها من حدس توروك، فقالت: يبدو أنه سيكون من الأفضل لو أنك لا تستمع إلى حدسك.

لم يعقّب توروك بشيء. أعاد لائحة الطعام إلى يده، وبالأخرى أشار إلى النادل.

أراد توروك أن يمكّن كوزمينا من الثأر. هو يعلم أنه كان محقًا في كلامه.. فردة فعل كوزمينا كانت أشبه بالصراخ أن «أجل أنا كذلك». رغم ذلك أراد أن يعطيها الفرصة كي تردها إليه، فقال: وأنتِ، ما يخبركِ حدسكِ عني؟

كانت كوزمينا مطأطئة الرأس كي تتجنب التقاء عينيها بعيني توروك، تبحلق بشيء ما على الطاولة، فنظرت بعينيها إليه دون أن ترفع رأسها بما يكفي، فكانت تبدو كطفل مشاغب يتلقى طلبًا صريحًا من أستاذه يسمح له بالمشاغبة.

- حسنًا، أنتَ رجلٌ لطيف. طاعنٌ في السن لكن ليس جسديًا.. بل روحياً.. فأنتَ كروح عجوز تعيش مسجونة في جسد رجل في الأربعينيات من عمره.

- هل هذا كل ما لديكِ؟

يقول توروك مستفزًا كوزمينا. لكن كوزمينا وبشكل غريب تجيب: نعم، هذا كل ما لديّ.

وفي محاولة يائسة من توروك لكسر الجليد المتراكم ثانيةً يقول: هل يعجبكِ المنظر؟

تقول كوزمينا: أحب البحر أكثر، أحب ذلك المشهد الذي يبدو لي من نافذة منزلي في كونستانتسا.

فيقول توروك: من المثير في البحر أنه يسمح لك بالحديث معه كما شئت، وفي اللحظة التي يحملك الانفعال فتعانقه.. تغرق، وهكذا هم بعض البشر تمامًا، قد نحادثهم وفي لحظة من الانفعال العاطفي قد نحتضنهم فنغرق بهم، وعندها يكون في الغرق بعث جميل.

هل هذا الجانب الشاعري من البروفيسور توروك؟ تتساءل كوزمينا.

على الأرجح نعم. يجيبها توروك.

يصل النادل مع الطعام ويبدأ في توزيعه على الطاولة.. ويتناولا طعامهما بهدوء ويتبادل بسيط للكلمات تفرضه ضرورة الظرف، كقول «مرر لي الملح من فضلك».

انتهى الطعام، وبدأ توروك في إعادة الحديث عن أساس هذه العلاقة البائسة.

- ماذا لديكِ أيضًا عن جورجي؟

تتساءل كوزمينا من فورها: هل كل الرجال كجورجي؟ أقصد فيما يخص علاقتهم بالنساء، ومفهومهم عن الحب، أعني.. عندما أرسلت إليّ ماريا دفتر الملاحظات أرفقت معه رسالة اعترفت لي بأنها كانت تحب جورجي. وأنها كانت مستاءة من بروده ونظرته للحب.. لكن حبها له ألجمها.

- أوه عزيزتي! إن ماريا تدرك من صميم مهنتها أن جورجي على حق. على الأقل من وجهة نظر علمية محضة. لكنها على الأرجح ككل النساء ترى بقلبها عكس ما يقوله العقل والمنطق. لن أنكر أبدًا أن الأمر شائك فيما يخص العلاقة بين الرجل والمرأة. ورغم ذلك أقول إن كل الحكاية تعتمد على الأمل، فالرجل يحاول أن يزرع الأمل في صدر المرأة بمستقبل للعلاقة بينما تحاول المرأة أن تزرع الأمل في صدر الرجل بأنها تستحق التضحية والاستقرار في سبيلها.

تقول كوزمينا في نفسها: كلام تقليدي صادر من رجل.

- ولماذا نفترض بأن المرأة تتوق لأن تبدو مُجديّة في عين الرجل.

- أوه عزيزتي! أرجوكِ انظري في الجوار. لماذا تتزيّن المرأة هكذا بشكل مفرط؟

فتقول كوزمينا فورًا: ليس كلهن.

فيستدرك توروك: نعم، نعم.. بالطبع. لكننا نتحدث من ناحية

علمية وهي تنطبق في عمومها على الأغلب، لكن ليس بشكل مطلق.

يردف توروك: وعلى هذا الأساس من الأمل تعمل الكيمياء عملها.. وتطلق ما يضمن لكل طرف الحصول على ما يريد.

وما الذي يريده كل طرف؟ تتساءل كوزمينا.

يمد توروك يده إلى زجاجة النبيذ ليسكب لهما كأسين، دون أن يسأل كوزمينا، ثم يبدأ في الرد: من المهم أن ندرك أن الآلية التي يعمل فيها العقل فيما يخص العلاقات العاطفية هي من أكثر الآليات بدائية، والتي لم تتطور كبقية آليات الجهاز العصبي في الدماغ. وعليه فإن غاية الرجل على الأغلب هي نشر ذريته في أكبر عدد ممكن من النساء.. بينما تكمن غاية المرأة في الاستقرار مع الرجل إلى الأبد. ونظرًا لتضارب الغايتين مع بعضيهما البعض فإن الطبيعة ابتدعت هذه الكيمياء المذهلة كي تجبر الطرفين على البقاء معًا لفترة كافية لتوليد جيل جديد.، لتوفّق بين الغايتين إن أمكن لنا القول. وهذه الكيمياء في نهاية الأمر هي ما يسمى بالحب.

- وماذا عن رفضنا لبعض الخيارات المتاحة؟ فليس كل من يبدي اهتمامه بنا يلقَ عندنا قبولاً بالضرورة.

- نعم، هذا صحيح. ولكن هذا له أسبابه. فلربما لم يعجبها شكله، أو أنها مهتمة بأحد ما.. أو أنه لم يطرق الباب الرابح لها. ولأفسر لكِ الأمر بشكل أوضح، إننا بشكل عام ننسجم مع قوانين الانتخاب الطبيعي في نظرية داروين، التي تفترض بأن الفرد الأصلح هو الذي سيتمكن من التكاثر وتوريث موروثاته الجينية للجيل الجديد. إننا نمارس التمييز حسب الشكل أو العرق أو الديانة ثم نقوم بدور إنساني في استنكاره وبُغض من يفعله.. أتعتقدين بأنه من الممكن أن تتقبلي الارتباط ببدين أصلع مصاب بالسكري ولا يمتلك المال؟ قد يكون رجلاً طيبًا بحق لكن الطيبة هنا ليست ذات أهمية.. فهو على الأرجح لن يكون مادة تصلح لشرف الزواج منك. حتى أنا.. أكنت سأقبل الارتباط

بعمياء أو بمن هي بقدم واحدة؟ إن الرجل منا لينفر من امرأة كاملة الجسد إن لم يعجبه لون بشرتها! فكيف إن كان بها عيب أكبر؟ أخشى أننا اعتدنا النفاق الاجتماعي عزيزتي.. ولسنا نملك سوى إنكار ذلك كنوع من الفعل الإنساني بينما تنعدم الإنسانية في أفعالنا في واقع الحال.

- هل هكذا كان يفكّر جورجي؟ هل كان ذلك عادلاً لماريا برأيك؟

- عزيزتي.. إن ماريا امرأة بالغة راشدة قوية.. وتستطيع أن تتخذ قراراتها دون تأثير من أحد. ثم من قال شيئًا عن كون الحياة عادلة؟

فتقول كوزمينا: ماذا عن لعبة الطبيعة؟ إنها تعمي البصر.. فنحن لا نحبهم لحقيقتهم.. بل نحبهم لما نراهم في أعيننا.. لهذا يحدث أن نكرههم متى ما تمكّنا من رؤيتهم على حقيقتهم. ولا تنسَ أن يأتيَ الحب والكراهية يتجاوران في القلب، وفي سياق الحياة قد يختلط عليك الأمر بسهولة.

يبدو أن هذا حوار لن أغلبكِ فيه. يقول توروك.

فتبتسم كوزمينا متعجبة.. فيردف توروك قائلاً: ماذا عساني أقول؟ نحن جنس من الخنازير.. أيرضيكِ هذا؟

فتضحك كوزمينا ملء شدقيها. في هذه الأثناء يأتي النادل: معذرة عن المقاطعة، تود إدارة المطعم بأن تقدّم لكما قسيمة لرحلة سياحية مجانية لشخصين إلى بران* - برازوف** كهدية لكونكما قد طلبتما الوجبة رقم مائة ألف منذ تاريخ افتتاح المطعم.

يقول توروك في نفسه: بران - برازوف.. حيث قلعة دراكولا؟ عندما نأتِ على سيرة الشيطان فإنه يهب قادمًا.

---

* هي قرية تابعة لمقاطعة برازوف وتكمن شهرتها في احتوائها على قلعة دراكولا.

** مدينة رومانية تقع على الحدود بين ولايتي والاشيا وترانسلفانيا الرومانيتين، وهي على بعد 140 كيلومترًا شمال بوخارست.

لكنه يقول: شكرًا جزيلاً لك.

يضع النادل القسيمة على الطاولة ثم ينصرف.

يبدو أننا محظوظان. تقول كوزمينا.

- ما رأيك؟ هل نذهب؟

يسأل توروك. وقبل أن تجيبه يستدرك فيهز رأسه ويقول ضاحكًا: أنا أداعبك وحسب.

ثم يقدّم لها القسيمة.. قائلاً: أنتِ مهتمة بدراكولا.. وقد تكون زيارة قلعة دراكولا فكرة جيدة للترويح عن النفس كذلك. إن الأمر يبدو وكأنها دعوة شخصية من دراكولا للأميرة كوزمينا دالكا.. من يدري؟ فقد يصحو دراكولا من قبره ليستعيد مُلكه من جديد.

بعضّة في عنقي أم بقبلة؟ تتساءل كوزمينا.

فيجيبها توروك: سيّان! ثم يرفع كأسه داعيًا إياها لشرب نخب، نخب دراكولا.. ويقدح كأسه بكأس كوزمينا.. ويحتسيان كل منهما رشفة.

لم تضع كوزمينا كأس النبيذ على الطاولة، بل بدأت بتدويره بين راحتي كفيها.. ثم ترتشف منه رشفة هادئة أخرى وهي تنظر إلى الأفق.. ثم تعود فتقول: أنا أعلم أنك تحب جورجي. ولكن هل تراكَ تحب ماريا كحبك لجورجي؟

ينظر توروك إليها. فتردف كوزمينا بارتباك واضح: لا أقصد أن تحبها حباً.. كالحب.. أقصد حب صديق، كحبك لجورجي. هو يسمى بالحب أيضاً؟ أليس كذلك؟

- في الواقع، لقد تعرّف جورجي إلى ماريا من خلالي. وقد كنا أنا وماريا في فترة ما حميمين.

تشهق كوزمينا: أنتَ وماريا؟!

- أجل.

- وما الذي حصل؟

- ما حصل هو ما يحصل دائمًا.. عندما تذوي شعلة الحب. لستُ

أدري إن ملَّ أحدنا الآخر أم ماذا.. لكننا اتفقنا يومًا بأن نفتح المجال لمواعدة أشخاص آخرين. وهكذا تمت الأمور.

- وهل أحببتها؟

- نحن لا ندرك حقيقة فراق الأحبة فعلاً إلا عندما تتيح لنا الظروف اللقاء مرة أخرى.. عندها نقف عراةً أمام حقيقة أننا مضطرون لتحيتهم كما نفعل مع الغرباء، وكما نحيي الغرباء...

يقول توروك هذه العبارة المؤثرة ثم يردف: حسنًا، لا تصدقي تلك الترهات.

فتضحك كوزمينا. ثم يضيف توروك فيقول: لا، هو الحب الكيميائي.. فلستُ أرى سوى ذلك.

- حسنًا، هل تفتقدها؟

- أحيانًا.

- هل أنتَ نادمٌ على تركها؟

- لربما أرثي لنفسي أحيانًا.

فتضحك كوزمينا وتقول: كفاك سخرية.

فيقول: وما رأيكِ أنتِ؟

فتجيبه كوزمينا: أقول تمامًا كما يقولون، إن الحياة لا تعتمد على توزيع أوراق اللعب.. بل في كيفية اللعب بتلك الأوراق.. فلا تلُم الحياة لأنها لم تكن عادلة معك.. أنت فقط لم تحسن اللعب.

فيرد توروك: رغم أني لم ألُم الحياة قط، لكن أووتش*! كان ذلك مؤلمًا.

فتعود كوزمينا للضحك مرة أخرى.

*****

---

* Ouch! لفظ يستخدم تعبيرًا عن الشعور بالألم بشكل مجازي.

الفصل الخامس عشر
قلعة دراكولا

في الفندق

في صباح اليوم التالي لم تستيقظ كوزمينا من نومها مبكرًا، حتى وقت الظهيرة تقريبًا، وأفاقت وفي بالها كلمة واحدة «برازوف».

قامت من سريرها بتكاسل، وطلبت الفطور إلى الغرفة، فقد كانت أكسل من أن تنزل لتناول الفطور. لم تشعر برغبة في فعل شيء بعدها على الإطلاق. «برازوف» بدا وكأنه اسمٌ موسيقيٌ ليظل عالقًا كأغنية ترتبط بذكرى معينة، فما أن تسمع الأغنية حتى نرى الذكرى كلقطة من فيلمنا المفضّل لكن في إطار صورة فوتوغرافية.. أو بمجرد أن تمرّ الذكرى في بالنا حتى نبدأ بترديد نغمة تلك الأغنية.

حسنًا، لنذهب ولنرى.. ولننتهِ من هذا الأمر. هناك بعض الرغبات إن تمنعت عنها تمنع عنك الشعور بالحياة.

وكما كان في المرة الأولى، خرجت كوزمينا من الفندق واستقلت أول حافلة مغادرة من بوخارست وهذه المرة إلى بران برازوف.

سلكت الحافلة طريقها باتجاه تارغوفيشتي، ثم لونكا، فوينيشتي، أونسيشتي، سيتاتيني وصولاً إلى روكار.. وأخيراً إلى بران.

بران قرية تقع في وادي، تطل عليه سلسلة جبال بيوسيغي.. تقع معظم السلسلة على يسار الوادي، وعلى يمينه تقع هضبة متواضعة تمثل جزءًا من امتداد السلسلة الجبلية التي تمتد فوق الهضبة، لتكمل الجزء الأيمن لهذه السلسلة العظيمة حيث نُصبت قلعة دراكولا.

كانت القرية في الماضي تعتمد على الزراعة، لكنها اليوم قد تحولت إلى السياحة. طريق الوادي يمتد ليصل إلى مدينة برازوف ثم أقصى شرق رومانيا حتى الحدود مع مولدافيا.. ويأتيها السياح من شتى أنحاء العالم.

استفادت بران من سمعة دراكولا التي أطلقها ستوكر في روايته على

مستوى العالم، بينما كانت قبل ذلك مقصورة على أوروبا.. ورغم أنه ليس ثمة دليل على أن هذه القلعة هي التي قصدها ستوكر في روايته، وعلى الأرجح فإن ستوكر لم يكن يعلم بوجود هذه القلعة من الأساس.. حتى أنه لا يمكن أن تكون هي ذاتها جغرافيًا.. ففي رواية ستوكر كانت القلعة في سلسلة كاربائيان الجبلية والتي تقع إلى الشمال من هذه القلعة في ترانسلفانيا. وقد أخطأ ستوكر بالفعل عندما ربط بين دراكولا وترانسلفانيا.. نعم هي مسقط رأسه، لكنه ارتبط أكثر بمملكته والاشيا جنوب رومانيا. بل إنه من غير المرجّح أن تكون لهذه القلعة أي علاقة كانت بدراكولا، وإن كان ثمة قلاع قد استخدمها دراكولا بالفعل فهي قلعة بويناري في أريفو، والتي لم يتبقَ منها سوى الأنقاض. وقلعة كورفن في مقاطعة هونيدوارا غرب رومانيا.

لكن قلعة بران نجحت على أي حال في الاستحواذ بارتباط دائم بدراكولا ورواية ستوكر، لربما لشكلها الجميل والمكتمل، والذي لربما يوصف بالسياحي بامتياز. فالوعي الذي تمتلكه الجماهير يهتم بانسجام الحقيقة مع ما يعرفونه بالفعل، ويشككون في الحقائق التي تتعارض معها. وعليه فإن قلعة بران تنسجم مع جو الرعب الذي يفترض أن يوحي اسم دراكولا به.. ويتفق أنها جميلة كذلك.

وكما قلنا بأنه قد أُطلقت الكثير من الشائعات على دراكولا.. وهو أمر طبيعي لصيته السيئ، ومنها أنه عُثر على قبره فارغًا، رغم أنه لم يُعثر بعد على قبره حتى اليوم. ولربما تعدّ هذه الشائعة بالذات هي ما أوحت للناس وهم أنه رجل لا يموت.. مما ألهم ستوكر برائعته دراكولا.

أخذت كوزمينا جولتها السياحية وذهبت لتبيت ليلتها في أحد الفنادق السياحية الكثيرة في قرية دراكولا.

هو فندق متواضع، فلم تشأ أن تنزل في فندق يعج بالسياح. له بهو أعرض مما يجب، يتميز بأثاث يبدو عليه طراز العصر التيتوني. على

يسار البهو يقع مكتب الاستقبال.. وفي آخر البهو تقع كافيتيريا وبار صغير. تنتهي كوزمينا من إجراءات الاستقبال وتصعد لغرفتها.

كانت الغرفة لا بأس بها، تحتوي على أثاث من نفس طراز أثاث البهو. ذهبت كوزمينا باتجاه النافذة التي كانت تطل على بضع شجيرات، وحيث إن الليل كان قد خيّم منذ بضع ساعات فلم تستطع أن ترى شيئًا.. وحتى إن تمكنت فليس ثمة ما يثير الاهتمام.

ها أنا ذا في قرية دراكولا.. وحيدة! لمَ لم أنطق بنعم لتوروك؟ إن كانت المرأة تخشى الوحدة فقد يكون ذهابها إلى مكان كهذا خيارًا سيئًا للغاية. أحتاج إلى مشروب.. أحتاج إلى رفقة.

تنزل كوزمينا إلى البار وتجلس إلى كرسي وتطلب من النادل كوكتيلاً خاصًا.. لم يكن هناك في البار سوى رجل على الطرف الآخر من البار.. وزوجين في الخلف في طور تودد طقوسي يثير القرف إلى حد ما.

كان الرجل على يمينها بعيدًا، ويرتدي قبعة تغطي وجهه المائل إلى الأسفل، حيث بدا وكأنه ينظر في كأسه.

يقدّم النادل الشراب لكوزمينا.. التي رغم ما يجري خلفها من قرف تشعر بالاستئناس.. لربما كان وجود النادل والرجل على يمينها لهما ذاك المفعول.

تحتسي شرابها على مهل وتلذذ، رغم أنها تكاد لا تشعر بأن له أي طعم. هي تفكّر لربما كان حريًا بها أن تأتي إلى هناك بصحبة فيركا. لكنها انفصلت عن فيركا لتوها.. صحيح، لكن لمَ عساها فعلت ذلك؟ ثم تخطر ببالها كلمات توروك: «ما حصل هو ما يحصل دائمًا.. عندما تذوي شعلة الحب. لستُ أدري إن ملَّ أحدنا الآخر أم ماذا»، أهو الملل إذن؟ هل ذلك يعني أني أحتاج إلى التجديد؟ إذن لمَ يخطر ببالي الآن، ولمَ أشعر بأني أفتقده؟

في الواقع، هي تفتقد الرفقة.. لا فيركا. وهي على الأرجح كانت لتنسى أمره فورًا لو كان ثمة من يرافقها في هذه اللحظة.. هكذا نحن، ننسى

أحدهم بأحد آخر جديد. إنه الشعور بالحب ما نطلبه، لا أحدًا بعينه. وهذا ما كان جورجي وتوروك يؤمنان فيه.

تنظر كوزمينا إلى يمينها، فتجد الرجل يحتسي الشراب وينظر إليها.. وعندما التقت نظراتهما ابتسم لها.. ولم تتردد كوزمينا في أن ترد الابتسامة بمثلها.

لم تستمر كوزمينا في النظر إليه، فانشغلت مرةً أخرى بأفكارها. أنا لستُ أرتبط بالرجال عاطفيًا ولا أخالني أرتبط بشخص عاجز مثلاً كما قال توروك. أيعقل أن نكون بمثل تلك البشاعة؟ هل كل ما تعنيه حياتنا هو أن يورث الأفضل منا موروثاته الجينية إلى الجيل الجديد؟ يا لها من حياة مادية خالصة!

يأتيها النادل بكأس من الويسكي قائلاً إنها من الرجل على الطرف الآخر من البار. فتنظر كوزمينا إليه فتجده ينظر إليها مبتسمًا ورفع لها كأسه مشيرًا، وكأنه يقترح نخبًا ثم يحتسي منه رشفة. تومئ كوزمينا له شاكرة.. وترفع كأسها له بالمقابل ثم تحتسي جرعة.

لم تستطع كوزمينا أن تقاوم فضولها أكثر، فتقدمت من الرجل، وجلست إلى جواره قائلة: أشكرك. فرد الرجل: لا عليكِ، كلنا نحتاج كأسًا ورفقة أحيانًا. فتبتسم كوزمينا وتقول: أجل، صحيح.

كان الرجل يلبس ثيابًا شبه رسمية، تنقصه ربطة العنق. كان أسمر اللون، حليق الوجه بشكل ممتاز، عريض الذقن، دقيق العينين، حاد الأنف. يحمل ملامح بدت مريحة لكوزمينا.

لا أعتقد أنكِ هنا منذ فترة طويلة، أليس كذلك؟ يتساءل الرجل.

- صحيح، لقد وصلت اليوم.

- هل أنتِ وحدكِ أم...؟

- لا، لا أنا وحدي. أتيتُ إلى هنا وحدي. ربحتُ قسيمة غبية في مطعم.

لا تشعر كوزمينا بالارتياح لهذه الأسئلة التي تشي بوحدتها وتعرّيها. وتحاول أن تتخلص من الحرج بتحويل السؤال إليه.

- وأنت؟

- نعم، أنا هنا منذ نحو شهرين. يعجبني المكان هنا.. ولربما سأبقى لبعض الوقت. هل يعجبكِ المكان؟

- لا بأس به.

- أنا كوزمينا دالكا. تشرفت بك.

يقول الرجل مبتسمًا ويردف: منذ زمن لا بأس به، لم أتعرف إلى أحد أو أعرّف نفسي لأحد.

فتقول كوزمينا: قد تكون هذه الليلة فرصة لتغيير ذلك.

فيومىء برأسه قائلاً: أجل.

فيحتسي جرعة من كأسه.. ثم يقول: بوشينسكي.. جورجي بوشينسكي.

*****

١٤٦
١٤٧
١٤٨

الفصل السادس عشر
بوشينسكي بشحمه ولحمه

قلعة دراكولا - بران - برازوف

جحظت عينا كوزمينا من فرط دهشتها لمثل هذه الصدفة العجيبة. فها هو من قضت شهورًا طويلة تتقصى أطراف حكايته، يجلس أمامها في بار صغير في فندق غير معروف في قرية بران المتواضعة، على بعد أمتار مَن قلعة دراكولا. وما الذي يجعل رجلاً فارًا من العدالة يتخلى فجأة عن حذره، وهو الذي اختفى دون أن يُعلِم أحدًا من أحبائه وعائلته عن مكانه.. ثم يأتي لي أنا الغريبة فيعرّف نفسه بمثل هذه البساطة؟!

لاحظ جورجي علامات الدهشة على وجه كوزمينا، فسألها: ما هنالك؟

أنتَ لا تعرفني؟ تتساءل كوزمينا.

فقال: هل التقينا من قبل؟

- لا، لم نلتقِ. لكن لقاءنا هنا أغرب من أن يكون مصادفة.

بدا جورجي يشعر بالضيق من الأمر، فهمّ بالرحيل قائلاً: تشرفتُ بك.

- لا، انتظر؛ كنتُ أبحثُ عنك.

فزاد ارتياب جورجي، وقال: تبحثين عني؟ ولمَ؟

- أعتقد أنني أستطيع مساعدتك.

فيمَ؟ يتساءل جورجي.

- فيما يخص قلبك.

- ومن قال إنني بحاجة للمساعدة فيما يخص قلبي؟ إن قلبي...

وتوقف جورجي لبرهة ثم أردف: في أحسن حال. وهمّ مرة أخرى بالرحيل قائلاً: فرصة سعيدة.

أنا أعرف كل شيء، موضوع أخيك.. ووالدتك إيلين.. وحكاية فلاد وأخيه رادو.. كل شيء.

زاد ارتياب جورجي.. فلم يقل شيئًا ورحل. لم تتركه كوزمينا يرحل بمثل هذه البساطة، فلحقت به. وقالت: أرجوك، أنا لا أريد بكَ سوءًا. أنا أخصائية في أمراض القلب والشرايين وأريد مساعدتك.

قال جورجي بحدة: لستُ بحاجة للمساعدة من أحد. ثم ذهب هذه المرة بعد أن أزاحها بيديه عن طريقه مهرولاً إلى خارج الفندق. حاولت كوزمينا اللحاق به إلى خارج الفندق.. لكنها لم تجد أحدًا. نظرت من حولها.. دونما فائدة.

ما الذي حصل للتو؟ تُسائل كوزمينا نفسها. هل أضعتُ لتوّي فرصة الحديث وجهًا لوجه مع موضوع تجربتي الأكبر على الإطلاق؟ يا له من حظ عاثر!

إنه الإنسان يا سادة، قد تخدمه الظروف وتقدّم له الخدمات المجانية المتتالية.. وفي أول حادث من عدم التوفيق نجده يتحدّث عن الحظ العاثر.

تعود كوزمينا لغرفتها وتستلقي على ظهرها على السرير.. تفكّر في هذا اللقاء الغرائبي.. ثم تقوم وتتناول دفتر ملاحظات جورجي وتقلب الصفحات قليلاً، ثم تحتضنه وتغمض عينيها وهي تتطلع للغد.

في صباح اليوم التالي، تستيقظ كوزمينا على صوت طرقٍ على باب الغرفة. تقوم بتثاقل وتفتح الباب، وجدت أمامها جورجي واقفًا على الباب. يقول: لربما كانت فكرة سيئة.

أزالت رؤية جورجي كل آثار النوم في عينيها وقالت: لا لا لا.. أرجوك.. ادخل لنتحدث قليلاً.

وقف جورجي لبرهة تظهر على جبينه بضع قطرات من العرق، رغم أن الجو كان لطيفًا. ثم يقول: حسنًا، لديّ موعد في الظهيرة على أي حال.. ويدخل.

طلبت كوزمينا إليه الجلوس، ثم دخلت دورة المياه لترتدي شيئًا لائقًا، فقد كانت ترتدي قميص نوم خفيف.

في هـذا الوقـت كان جورجـي متحرّجًـا ينظـر حولـه في الغرفـة.. فوقعـت عيناه عـلى دفـتر ملاحظاتـه، فقـام وتناولـه وفتـح الصفحـة الأولى، متسـائلاً عـن كيفيـة وصولـه إلى كوزمينـا. تعـود كوزمينـا في هـذه اللحظـة وتجـده عـلى هـذه الحـال، فتبتسـم وتقـول: أسـتطيع تفسـير هـذا.

فيقول جورجي: نعم، لديكِ الكثير مما يحتاج إلى تفسير.

- بدأ الأمر عندما كنتُ أعمل على بحث في الذاكرة الخلوية.

تغـيّرت إيمـاءات وجـه جورجـي عنـد سـماع هـذه العبـارة.. فلـم تعلّـق كوزمينـا، بـل اسـتمرت في كلامهـا: وتحدثـتُ مـع أسـتاذ في علـم الأعصـاب، والـذي ذكـر اسـمك كحالـة يمكنـني دراسـتها. فتحريـت عنـك، وقابلـت صديقـك تـوروك وصديقتـك ماريـا، وقمـت بزيـارة والديـك في القطـاع الأول. وإن كنـتُ أحسـن قـراءة النـاس فأسـتطيع القـول بأنـك تعـرف بعـض الـشيء عـن الذاكـرة الخلويـة.

صمـت جورجـي لبرهـة، ثـم قـال: إن أي أحـد مـكاني كان ليبحـث عـن تفسـير مـا لـكل مـا حـدث. تقـترب كوزمينـا مـن مـكان جلـوس جورجـي وتجلـس إلى جـواره ثـم تقـول: مـا الـذي حـدث سـيد بوشينسـكي؟

يجيبها فورًا: لا تليق بك.

ما هي؟ تتساءل كوزمينا.

يجيب جورجي: السيد بوشينسكي.

ثـم يـردف: لقـد تعارفنـا بالأمـس في البـار.. ولا يحـدث أن ينـادي أحـد مـا شـخصًا تعـرّف إليـه في البـار باسـم العائلـة، مضافًـا إليهـا كلمـة سـيد.

حسنًا، تقول كوزمينا: جورجي، هل هذا أفضل؟

- نعـم. لا بـد مـن أنـك تظننيـني مختـلاً.. أو عـلى أقـل تقديـر غـير سـويّ. فمـن ذا الـذي يعـرّف نفسـه إلى غريبـة وهـو فـار مـن العدالـة؟

- لستُ أراك كذلك، لربما ما حدث قد جعل منك وحيدًا...

قاطعها جورجي: ليس للوحدة شأنٌ في هذا.

- حسنًا، ما الأمر إذن؟

يسأل جورجي في محاولة لتغيير الموضوع: كيف أمي؟

- هـي في حـال جيـدة، ووالـدك كذلـك ليـس لـه شـاغل سـواك، وسـيرة طفولتـك.

يبتسم جورجي: وماريا؟

- هي في حال صعبة؛ يبدو أنها تحبك.

ثم تقوم وتأتي برسالتها لتناولها إلى جورجي الذي يقرؤها بصمت.

- كنتُ أعلم ذلك.

يقول جورجي ثم يضع الرسالة على الطاولة.

- تعلم؟ وماذا عن تلك المحاضرة؟

- أي محاضرة؟

- هل تذكر فالكيريا؟

- يا إلهي! لقد قمت ببحث هائل عني!

- نعم، فعلت.

- ماذا عنها؟

- لا أدري، ما عدتُ أدري شيئًا.

- حسنًا، هل قتلت أخاك فعلاً؟

يصمت جورجي مرة أخرى ثم يقول: كيف حال توروك؟

- هو يحبك؛ ساعدني كثيرًا من أجلك.

- يحبني، أجل.

ينظر جورجي إلى عيني كوزمينا: هل تعلمين كيف أشعر؟

- لا، أخبرني.

- أشعر بأنـي كمـن استيقظ في صبـاح يـوم مـا.. ليجـد نفسـه وقـد أصبـح يـرى بعـض الأمـور بشـكل أوضـح. ولكـن أشـياء أخـرى كان موقنـًا بأنهـا حقيقيـة بـدت زائفـة. هـل أنـتِ في يقـين مـن أي شيء كوزمينـا؟

- أحب أن أعتقد بأنني على يقين.

لـم تسـتطع كوزمينـا أن تقـول بأنهـا عـلى يقـين أو أنهـا ليسـت كذلـك،

لأنها لم تكن تحاول أن تقول الصدق بقدر ما كانت تحاول أن تكسب ثقته.. وعلى غير المتوقع كانت إجابتها أصدق مما كان يمكن لها أن تجيب.

بالضبط، يقول جورجي. ثم يردف: نحن نقوم بفعل الدراسة ليس لأننا نبحث عن الحقيقة.. بل لأنه من المفترض بنا أن ندرس. نعمل لأننا مضطرون إليه كي نأكل لا لأننا نحب أن نعمل. نحب لأننا نحتاج لأحد إلى جوارنا، لا لأن محبوبنا مميز. نتزوج وننشئ أسرة لأن الجميع ينتظر منا ذلك. وحتى فيما يخص الإيمان، نحن نؤمن لأننا نحتاج ما نؤمن به ليس لأننا تحرينا الحقيقة فيما نؤمن.. وبعد كل ذلك نموت.

وهكذا، لربما صدقت تلك الأسطر:

إنكم ميتون،

ولم تعرفوا الحياة مطلقًا من قبل.

وقد يقول أي شخص

وأنتم غير موجودين الآن

بأنكم قد وجدتم من قبل

ولكنكم في الحقيقة جئت حياة لم تكن قط

يا لبؤس المصير!*

لقد ظننتُ أني قد أنقذتُ حياتي بزراعة القلب. لكنني يبدو أنني متُّ في أثناء تلك الجراحة، وبُعثتُ في جسد يشبه جسدي.. لكن الروح مختلفة.

تعجّبت كوزمينا في نفسها؛ جورجي الملحد الذي لا يؤمن بالحب.. يتحدث عن الروح، وعن الحب؟! لكنها لم تعلّق شيئًا.. فتركت له المجال ليكمل ما شاء له أن يكمل.

- نعم، كانت لديّ مشكلاتي مع أخي. كنتُ أظن بأن الأمر بسيط..

---

* مقطع من «قصائد إنسانية» للشاعر البيروفي سيزار بايخو 1892 - 1938.

لكن صلاح..

وصمت لبرهة.. ثم تابع: كان يتمادى ويزداد أذىً كلما كبرنا. رغم ذلك كانت طفولتي أكثر من رائعة بوجود جدي. لم تكن الأمور تخرج عن السيطرة إطلاقًا. ثم انصرفتُ لحياتي في الكيمياء، أتصدقين بأنني...؟ نعم لم أفقد معرفتي في الكيمياء. لكنني اليوم أجدني قد فقدتُ ذلك الشغف الذي كنتُ أقبل على الكيمياء فيه.. أترين هذا الدفتر؟ كنتُ أدوّن فيه تراكيب خاصة ابتكرتها بنفسي. منها ما له استخدامات طبية، ومنها ما له فوائد أخرى في الزراعة من أسمدة، وفي حفظ الأغذية لسنين فتظل طازجة. حتى أنني ابتكرتُ تركيبةَ قادرة على قتل سوس الأسنان.

يصمت لبرهة إضافية ثم يردف وهو يقلّب صفحات الدفتر: اليوم، أقرؤها ولا أجد في قلبي ذلك الشعور، لم أعد أشعر به يخفق.. أشعر به وكأنه يقول: نعم، أذكر هذا وأعرف كيف وصلتُ إليه وكيف تنتجه.. لكنني لستُ مهتمًا.

أنتِ تعلمين أن الابتكار فعل عقلي. لكن التكرار والإجادة يحوّل التحكم في الفعل من الوعي إلى اللا وعي.. فكل تلك الأشياء التي نتقنها ونظل نكررها تتحوّل إلى ما هو تحت سيطرة اللا وعي.. فتصبح عبارة «إنني أتقن فعل أمر ما أو إنني أعرف شيئًا ما عن ظهر قلب» صحيحة إلى حد كبير.

ثم ينظر إلى كوزمينا: لا بد من أن هذا شيء يسعدك يا أخصائية القلوب.

- في الحقيقة، إن ما يهمني الآن هو قلبك أنت.

- قلبي؟ هو ليس قلبي.

ثم يستدرك: ليس قلبي بيولوجيًا، من الواضح أنه لم يُصمّم من أجلي. هو يجعلني قادرًا على فعل أشياء لم أكن لأفعلها لو كان لي قلب جورجي الذي وُلد معه. يقولون بأننا كلنا كجنس بشري نمتلك القدرة الوحشية في داخلنا، تمكننا من فعل كل ما يلزم عندما تتهدد

حياتنا. لطالما ظننتُ أني لستُ أملك المدخل لتلك القدرة الوحشية التي يتحدّثون عنها. لكنني عرفت ذلك.. بل رأيته في منامي مرارًا من بعد أن وُهب إليّ ذلك القلب.

ماذا رأيت؟ تتسائل كوزمينا.

- كانت أحلامًا متكررة، منها ما يرتقي لأن يكون كوابيس بامتياز. كان هناك في أحدها أميرًا كان يرتدي وكأنه فارس من فرسان الحملات الصليبية يتعرّض لسهم غادر.. ثم يتقدّم منه رجل بلباس نبيل قديم ويقوم بقطع رأس الأمير.. وكنتُ أرى نفسي أحيانًا وكأني أنا من يقطع رأس الأمير. الأحلام الأخرى كانت غير منسجمة، بل هي أشبه بالمشاهد المتفرقة التي لا ترتبط بعضها ببعض بسياق معيّن. كلها تتحدث عن جثث معلّقة على أوتاد خشبية كبيرة، وليست الجثث معلّقة بمعنى تعليق بحبال ولا حتى دبابيس.. بل كانت الأوتاد تخترقها، كانت الأوتاد عبارة عن خوازيق.

فتقول كوزمينا: فلاد تيبيش* المخوزِق!

فيبتسم جورجي ويقول: تمامًا.

بالمناسبة، كيف تدبرتَ أمرك هنا؟ تتساءل كوزمينا.

- لم يكن الأمر صعبًا، وجدتُ عملاً في مكتب للسياحة قريب من هنا. ويبدأ عملي اليوم وقت الظهيرة. لم أغيّر اسمي.. كل ما هنالك أنني أخفي ما لا أريدهم أن يعلموه.

قد يتعرّف إليكَ أحدهم . تقول كوزمينا.

- هذا صحيح، لكنهم لا يستطيعون إثبات شيء، أضمن لكِ ذلك. أنا لستُ أختبئ، إنما أقوم بما يتناسب مع كينونتي الجديدة.

- حسنًا، هل عرفتَ المتبرّع صاحب القلب الأصلي؟

فيومئ جورجي برأسه أن أجل.

---

* تيبيش كلمة رومانية وتعني المخوزِق .

فتسأل كوزمينا متلهفة: كان أستاذًا في التاريخ والأدب، أليس كذلك؟

فيقول جورجي: لا، لم يكن رجلاً، بل امرأة تدعى ماريا فويتشيتا.

ثـم يسـتدرك: أعلـم أنـي لربمـا قـد جئتـكِ في وقـت غـير مناسـب، أيقظتـكِ مـن النـوم ولـم تتنـاولي فطـورك.

فتقـول كوزمينـا: لا لا أبـدًا، أنـا سـعيدة لأنـك أتيتـني. وإن كان عـلى الفطـور فنستطيع أن نتناوله معًا. وتوجهت نحـو الهاتـف لتطلـب فطـورًا لاثنـين مـن خدمـة الغـرف.

*****

١٥٧

١٥٨

الفصل السابع عشر

ماريا فويتشيتا

الفندق - بران برازوف

في انتظار الفطور تساءلت كوزمينا في نفسها فيما إذا كانت ما تزال الشرطة تبحث عن جورجي. لكنها آثرت أن تستغل وجوده معها إلى أقصى ما تستطيع إلى أن تتكشف لها الحقائق على مهل.

- حسنًا، من تكون ماريا فويتشيتا؟

- في بادئ الأمر، ماذا تعرفين عن فلاد تيبيش؟

- أعرف أن حكايته مع رادو الوسيم هي حكايتك مع صلاح.

ينظر جورجي إليها بدهشة وإعجاب ويومئ برأسه قائلاً: صحيح. ثم يردف: لكن الأمر له أبعادٌ إضافية، فقد مات رادو في ذات السنة التي خرج فيها فلاد من السجن. وبعض الروايات تقول بأنه قُتل مسمومًا، وأخرى بأنه قد قُطع رأسه بأمر مباشر من فلاد.. وأن الرأس أرسل إليه فيما بعد.

فتقول كوزمينا: حسنًا، هذا شيءٌ لا أعرفه.

- هناك المزيد؛ قُتل فلاد على يد ابنة رادو الوسيم.

فتقول كوزمينا: حسنًا، هذا أيضًا شيء جديد لم أكن أعرفه.

- اسمها ماريا فويتشيتا.

تُدهش كوزمينا: ماريا من؟

فيكرر جورجي: ماريا فويتشيتا المتبرعة، صاحبة قلبي الأصلية.

وبينما كانت كوزمينا جاحظة العينين من الدهشة، دسّ جورجي يده في جيبه الداخلي ليخرج رسالة ويعطيها لكوزمينا قائلاً: اقرئيها وانتحي.

«تحية طيبة وبعد..

حبيبي جورجي، أكتبُ إليك من عيادة القلب في ميونيخ التي تعرفها جيدًا.

أنتَ لا تعرفني.. لكنني كنتُ أراقبكَ منذ مدة. وحرصتُ على أن يكون

قلبي لك. ألا يقول العاشقون أشياءً مشابهة؟ لا بد من أنك ستظنني مجنونة لكن ذلك ليس مهمًا.. دع قلبك -والذي سيكون هو ذاته قلبي إن كنتَ تقرأ هذه الكلمات الآن- يقودك هو سيدلّك على الحقيقة.

لا بد من أنك تشعر بالتغيير الآن، وما أوصلك لهذه الرسالة إلا رغبتك في فهم ما يجري. وكنتُ أعلم أنك قادر على الوصول إلى هنا. والآن، سأقصّ عليكَ حكايتي ولك أن تبحث وتتأكد بنفسك:

أنا ابنة رادو الوسيم، الأخ الأصغر لفلاد تيبيش.. وقد قام عمي بقتل أبي وأنا أبلغ من العمر عشرين عاماً، فأقسمتُ على قتله.. ولم يمضِ عامٌ حتى تمكنتُ من قطع رأسه وأرسلته بنفسي للسلطان محمد الثاني في القسطنطينية. لم يكن الأمر سهلاً، لقد كنتُ وحيدة أبي وأمي.. ولا بد من أنك تعلم أن أبي قد اعتنق الإسلام عندما كان في كنف مراد الثاني، وتزوج من أمي فاطمة وهي ابنة نبيل تركي. كنتُ وحيدتهما، فحرص أبي على تعليمي الفروسية وكأني صبي ذكر. لكن كوني امرأة جعل من وصولي إلى عمي وهو بين جنوده أمرًا صعبًا للغاية. فكان عليّ أن أبدو كرجل، فقمتُ بالتخفّي كرجل من النبلاء، وتقربتُ من جنوده المقرّبين ورشوتهم. هم مرتزقة كما تعلم لا يهمّهم سوى المال. وحين جاءت اللحظة أرسلت سهمًا مسمومًا في صدره، ولم أنتظر السم ليعطي مفعوله فتقدمتُ منه وقطعتُ رأسه.

كان هناك رجل من الغجر، وقد رآني أفعل فعلتي مع عمي. وبينما كنتُ ألفّ رأس عمي بقطعة من القماش لآخذها إلى السلطان حتى تقدّم الغجري مني وقال لي إنه مدين لي لقتلي هذا المجرم.. وإنه يريد أن يقدّم لي أي خدمة كانت. فقلت له هازئة: إنني أريد عمرًا طويلاً.. فأجابني: هل أنتِ متأكدة؟ أجبته بنعم. فقال: أعطني شعرة

ولكِ ذلك. لم أجادل، بل مددتُ يدي إلى أسفل الكابلاك* ونزعتُ شعرة وأعطيته إياها، وسألته: وكيف سيتم ذلك؟ قال: إن الأجداد قد علّموه بعض الحيل التي يمكنها أن تفيدني في طلبي. لم أبالِ بما قال وانصرفت.

بعد أن انتهيت من رأس عمي، رحلتُ إلى مولدافيا بهويتي الحقيقية كابنة رادو الوسيم، وقد كان هناك بنو عمومتي، فتزوجتُ من ملك مولدافيا ستيفان الثالث. أردتُ أن أدفن ماضي أبي وعمي في زواجي. كان زوجي رجلاً في الخامسة والأربعين من عمره وكنتُ زوجته الثالثة، وقد ماتت كلتاهما قبل زواجي. كان ستيفان طيبًا معي. وأنجبنا أطفالاً رائعين. لم تظهر عليّ علامات التقدّم بالعمر، لم تظهر التجاعيد في وجهي ولا الشيب في شعري، ولم تنقطع عني الدورة بل إنها تعودني حتى اللحظة. شهدتُ موت زوجي بعد ست وعشرين سنة من الزواج. وبعدها شهدتُ موت أولادي.. وعندها قررتُ أن أزيّف وفاتي وأختفي. أتعلم ماذا يعني ألا تمرض أو تشيخ؟ يعني أنك ستشهد موت كل من تحب، وستكون وحيدًا مهما عشت. فكل من تعرف وستعرف سيموتون قبلك. وسيؤلمك ذلك كما آلمك في المرة الأولى. كان لزامًا عليّ أن أختفي...».

هنا يطرقُ أحدهم الباب، فيهبُّ جورجي لفتح الباب.. إنها فتاة من خدمة الغرف وقد أتت بالفطور، فتضعه على الطاولة ثم تنصرف. ويقول جورجي: تناولي الفطور. فترد كوزمينا: أجل، بعد أن أنتهي. ثم تكمل القراءة.

«... بعد اختفائي عشتُ حياة مختلفة. اضطررتُ كثيرًا لتقمّص دور رجل. أنتَ تعلم كم قد تكون الدنيا قاسية على امرأة وحيدة رغم.

---

* كابلاك: قبعة طويلة اعتاد النبلاء في البلقان ارتداءها، وهي تعبر عن المكانة الاجتماعية المرموقة التي يمتلكها النبيل

تلك الأفضلية التي أملكها كوني لا أشيخ. ملكتُ الكثير من الوقت.. فكنتُ أقرأ كثيرًا. أحببتُ الأدب، وحفظتُ الكثير من الأشعار وتعلّمتُ كثيرًا، وخصوصًا فيما يخص قتل أو إعطاب البشر، وعملتُ كثيرًا، وأحببتُ كثيرًا.. وشاهدتهم يموتون.. وبعدها قررتُ بأني لن أتقرب من أحد بما يكفي لأحبه.

خضتُ الحروب وسفكتُ الدماء، قتلتُ أناسًا لا أعرفهم وأوقن أن لهم أمهات وآباء كما كان لي.. وأنهم سيؤلمون لأجلهم. لكنني لم أملك شيئاً آخر لأفعله، كما أنني استمتعتُ بقتلهم. يبدو أنه شيء قد ورثته عن عمي. لربما أكون ثأرتُ لأبي بقتل عمي.. لكنني أخشى أني غدوتُ أكثر شبهًا بعمي من شبهي لأبي.

ستمائة عام كثيرة جدًا على حياة واحدة يا عزيزي.. فكّرتُ كثيرًا في أن أنهي تلك الحياة البائسة.. فكوني لا أشيخ لا يعني بأني سأعيش إلى الأبد. لا بد لي من موت.. قد يكون بحادث، لكنني لم أكن محظوظة لهذه الدرجة، ففكّرتُ كثيرًا في الانتحار. لكنني فكرتُ في أن أنجب لمرة أخيرة.. أريد أن أرحل عن هذه الدنيا وهناك شيء مني ما يزال ينبض. لا أريد أن أموت وأنا قلقة عليه.. أريد أن أنجب رجلاً لا طفلاً، لا أريده أن يشقى من بعدي. وأريد له عمرًا طويلاً.. ليس كعمري بكل تأكيد. أريده طويلاً بما يكفي كي يتمكن من أن يحظى بحياة سعيدة.

وعندما بدأت زراعة القلب في الانتشار قلتُ هذه هي إذن. لكن من سيكون وريثي؟ من يستحق تلك الهدية الثمينة، قلبي؟

من حسن حظي أني أسكن في بوخارست، القطاع الأول. أي أني جارة لوالديك. وصديقة جيدة لوالدتك السيدة إيلين. هي امرأة رائعة بالمناسبة.

ومنها عرفتُ كل شيء عنكَ وعن صلاح. وبدأتُ بمراقبتك دون أن تدري. أعرف عن صديقتك ماريا، وعن صديقها السابق وهو صديقك أيضًا.. ولا أنكر أنني أرى ما رآته بك. ولربما أحببتُك كما أحبتك.

عندما حانت ساعة التنفيذ ذهبت إلى ميونيخ، ودخلتُ العيادة التي أكتبُ إليكَ منها، وبعد قليل سأخطف طبيبك.. وسآمره بأن يرسل إليك أنهم وجدوا متبرعًا بقلب يطابق قلبك. والذي هو فعلاً كذلك، لقد تأكدتُ من ذلك بنفسي. وعندما يصلني خبر وصولك المستشفى سأخبر الطبيب بأنني سأطلق النار على رأسي وعليه أن يزرع قلبي في صدرك.. بكل تأكيد سيتهمني بالجنون لكنني لن أنتظر منه رأيًا.

قد تفسّر لكَ رسالتي هذه الكثير مما كان ببالك خلال الفترة الماضية. وأتمنى أن تقدّر هذه الهدية الثمينة. لا تعتقد بأنك ستعيش مأساتي.. إنك بالتأكيد ستموت، لكنني أضمن لك بأنك لن تموت بسبب مرض في القلب.

كم أحببتُ أن يكون لي حبيب مثلك! وكم يسعدني أن تكون ابن قلبي! لربما أتشارك مع إيلين في كوني أمك بطريقة أو بأخرى.

حبيبتُك دومًا.. ماريا فويتشينا.

تقول كوزمينا: يا للجنون!هل تصدق أنت هذا الهراء؟

لقد أكد لي طبيبي ما فعلته في العيادة.. يقول جورجي.

- حسنًا، هي حقًا مجنونة.. لكن أتريد أن تقنعني بأن قلبك يبلغ من العمر ستمائة عام! وكيف تحدث هكذا حكاية خطف وانتحار دون أن يعلم بها أحد؟

يبتسم جورجي وهو يدس يده في جيبه مخرجًا ورقة من جريدة ويعطيها إياها، ويقول: هل تجيدين الألمانية؟

كانت القُصاصة من جريدة ألمانية تحتوي على مقال صحفي يتحدث عن اختطاف شابة لطبيب قلب وانتحارها في عيادته في ظروف غامضة. ويردف جورجي قائلاً: وقد احتفظ الطبيب بسرية شخصي وبقية التفاصيل وأخفاها عن الشرطة الألمانية حفاظًا على حياتي.. حيث أنه توقّع أن فعله ذلك يحميني. وأنا شديد الامتنان له على ذلك. إنه حتى لم يخبرني إلا بعد أن ألححتُ عليه بالطلب.. ورأى أنني أكاد

أجنّ. أما إن كانت حكايتها تلك في رسالتها صادقة أم لا، فلا يهم! ما يهم، هو أن هذه المرأة هي مصدر كل ما كان معي، الذكريات، تلك الدماء في كوابيسي، فلاد تيبيش، رادو الوسيم، ولعي المفاجئ بالأدب.. وتلك الأشعار التي أحفظها.. حتى تلك اللهجة التي يعوّج بها لساني عندما أنفعل، قرفي من الدخان، تلك المعرفة المذهلة لتفاصيل تشريح الإنسان، إنني أعرف مثلاً أني لو طعنتُ أحدًا من الخلف فإنه يتوجب عليّ أن أصيبه تحت الضلع الثالث كي أصيب الرئة، عندها لن يتكمن من الصراخ أو إصدار أي همسة.. أعلم أنني لو أطلقتُ النار في مؤخرة أحدهم فإنه سيحتاج إلى عشرين دقيقة كي يموت وستكون عشرين دقيقة من الجحيم، فسيشعر وكأنه يتبرز قطعًا من الزجاج طوال تلك المدة.

تقاطعه كوزمينا: لستَ بحاجة إلى أن تسهب في الشرح!

فيقول جورجي: أقول لكِ إنها مصدر كل شيء.. حتى لو كانت مجنونة، هي مصدر كل شيء. تعالي تناولي الفطور.

وقد كان جورجي قد سبقها بالفعل إلى ذلك. فتتقدم كوزمينا وتجلس وتسكب لها بعض القهوة، وتمسك سكينًا لتدهن بعض الزبدة على قطعة من الخبز ثم تبدأ بالأكل. وتقول: هذا صحيح، هذا ما يهم.

- لم أخبر أحدًا بحقيقة كيفية حصولي على القلب. حتى والديّ لا يعلمان شيئًا. أخبركِ شيئًا؟

- أكيد، تفضل.

فيقول جورجي وهو لا يزال يأكل: في بدايات حصولي على ذلك القلب لا أنكر أني كنتُ مرتبكًا وأحاول تفسير تلك التغيرات، وخصوصًا إيجاد مصدر لتلك الذكريات.. ثم بعد حديثي مع طبيبي في ميونيخ بدأتُ تقبّل الأمر، بل غدوتُ ممتنًا نوعًا ما. أتدرين؟ قبل زراعة القلب، كنتُ أخشى أخي. وأحسب له حسابًا. كنتُ لا أقوى على مشهد الدم.. وكان صلاح يُرهبني بأفعاله. لكنني بعد الزراعة أصبحتُ أتحداه. ولا أخفيكِ،

لقد استمتعتُ بقتله، أجل، استمتعتُ كثيرًا.

*****

١٦٦
١٦٧
١٦٨

الفصل الثامن عشر
الجريمة

الفندق، بران - برازوف

- إن الأمر أشبه بالحلم.. أقف واضعًا إصبعي على الزناد، ناظرًا في عينيه بحزم. وكان هو يبادلني النظر في عينيّ، وبعد برهة من الصمت يقول: ما بك؟ أطلِق النار.. أم تراك مترددًا؟ أجيبه بلهجة حازمة: لستُ مترددًا، إنما أستمتع برؤية الخوف الذي يطلّ عليّ من عينيك. وما أن أنهيتُ هذه الجملة حتى يدوّي صوت طلقة.. فيخرّ أمامي على الأرض. أتقدّم نحوه، كان ما يزال حيًا.. يرتجف، يحاول أن ينطق بشيء ما.. أنزل دانيًا من رأسه، فيقول: أراك قد كبرت.. فأضع يدي على فمه، وأقول: اششش.. لا تتكلم، مُت بهدوء. كانت إصابته بالصدر بالغة، لكن شعورًا ما ساورني أنه لن يموت بسرعة، فوقفتُ وسدّدتُ نحو صدره وأفرغت المسدس في جسده. لم يصرخ، لم يطلب مني الرحمة. ربما كان ذلك مفهومه عن الموت بهدوء. بعد أن تيقنت من موته، وقفت طويلاً أتأمله، ثم قلت: أتعلم يا أخي كم حلمتُ بهذا المشهد؟ ثم سكتُّ وكأنني كنت أنتظر من جثته أن تجيبني، ثم توجهتُ نحو سيارته فتناولتُ من دُرجها الأمامي مشطًا جديدًا للمسدس فعبأتُه ووضعته بحيث تكون ماسورته موازيةً، ملاصقةً لجبيني وفوهته في السماء. فقلتُ: أتعلم؟ هذه المناسبة تحتاج إلى بعض الموسيقى.. ومن النوع الذي تحب، أنا أكيد من أنك كنت لتحب ذلك، فأتوجه مرة أخرى إلى السيارة وأشغل ذلك القرص المدمج الذي كان يحب:

I see a red door and I want it painted black

No colors anymore I want them to turn black

I see the girls walk by dressed in their summer clothes

I have to turn my head until my darkness goes

I look inside myself and see my heart is black

I see my red door and it has been painted black

Maybe then I'll fade away and not have to face the facts

It's not easy facing up when your whole world is black

أتعلم أنني بدأت أحب هذه الأغنية؟ لمن هي؟ للرولينج ستونز، أليس كذلك؟ بدأتُ بترديد عباراتها كمن يتلو آياتٍ مقدسة أثناء تنفيذ طقوس الموت.. كنتُ رغم ذلك هادئًا جدًا لم أفقد عقلي أبدًا. إنني أذكر كل شيء بكل التفاصيل وكأنني أعيش الأحداث كل لحظة. وبعد لحظات بدأت بتفريغ المشط الثاني في صدره.. وعندما انتهى جلبتُ آخر. فأفرغته به أيضًا والرابع والخامس.. أفرغت به سبعة أمشاط.

I wanna see it painted black, painted black

Black as night, black as coal

I wanna see the sun, blotted out from the sky

I wanna see it painted, painted, painted, painted black

Yeah

وبعد أن أنهيتُ السابع كنتُ قد ارتحت. فتراجعتُ قليلاً ولم أشِح بوجهي مطلقًا عن جثته، بل أسندتُ نفسي على غطاء محرك السيارة.

لا تقلق يا أخي لن أتركك هكذا، أنت لا تستحق ذلك.. كان من المستحيل أن أنقل جثته الممزقة تلك إلى السيارة، فقررتُ أن أقودها كي تستقر فوق جثته.. وكذلك فعلت، وبينما كنت أنزل منها لفتت نظري علبة سجائره والثقاب اللتين لم تكونا لتفارقانه على الإطلاق.. فتناولتهما وفتحتُ الصندوق، فقد وضعتُ بضع زجاجات من الويسكي فيه بنفسي، تناولتُ اثنتين، ثم فكرتُ قليلاً.. فرجعتُ إلى السيارة وأبعدتها عن الجثة.. ثم ترجّلتُ ونظرتُ إلى وجهه، وقلتُ: كدتَ أن تنالَ مني. أنسيتَ أني كيميائي؟ لم يكن معي أدوات حادة، وحقيقةً لم أطِل البحث، فتناولت حجرًا وبدأت بسحق وجهه ورأسه كله.. لم تكن بالمهمة السهلة، فتحطيم وجه رجل بحجر أمرٌ شاق بحق. كانت يداي

قد تلطختا تمامًا بالدم ومادة دماغه الرمادية.. لكنني نلتُ غايتي.. نزعتُ فكيه بكامل أسنانه. مزقتُ قطعة من قميصه، مسحتُ بها يديَّ من الدم وبقايا دماغه.. ثم سكبتُ زجاجتيّ الخمر على الجثة، وأرجعتُ السيارة فوقه، وسكبتُ زجاجتين أخريين على السيارة من الداخل. أشعلتُ سيجارة من سجائره ولعلها آخر سيجارة لي في حياتي، وألقيتُ بالثقاب داخل السيارة، ثم وقفتُ بعيدًا أراقب النار تكبر وتلتهم كل شيء إلى أن انفجرت السيارة، عندها كان لزامًا عليّ أن أرحل، فلا بد أن يجلب صوت الانفجار أحدًا، ولو أن المنطقة نائية جدًا. كنتُ قد أديتُ واجبي على أكمل وجه، وغطيتُ آثاري.. وكل ما يمكن أن يربطني بالجريمة هو ظرفيّ محض. لا شيء ينقصني سوى إثبات وجودي في مكان آخر وقت الجريمة. أتعلمين؟ كثيرًا ما رأيتُني أقتله من قبل. كانت تلك الأحلام تراودني حتى قبل زراعة القلب. لكنني لم أكن أمتلك الجرأة لأنفذ تلك الرغبة الدفينة. الأمر تطوّر معي كثيرًا بعد الزراعة فكان وجه أخي بدلاً من وجه الأمير في ذلك الحلم المتكرر.. وكنتُ أراني أقطع رأسه بلا رحمة. كنتُ قد قتلته في عقلي ألف مرة من قبل.. وكل مرة كانت بطريقة مختلفة.. لكنك تعلمين ولا بد أننا في الواقع علينا أن نحتكم إلى أفضل ما قد تقدّمه لنا الظروف. لذا صوّرتُ الأمر وكأنها عملية سرقة جرت بشكل سيئ.

تتساءل كوزمينا: ولمَ يحتاج لص لإزالة رقم محرك السيارة؟

فيجيب جورجي: لم يكن سرًا على أحد أن صلاح ينتمي للمافيا. وقد يكون قد اختلف معهم فأرادت التخلص منه بشكل لا يعود عليها بضرر.

كانت كوزمينا قد توقفت عن تناول طعامها، بينما استمر جورجي في أكل الطعام وكأنه يتحدث عن نزهة قام بها. ولا يمكن الإنكار بأن الخوف قد بدأ يتسرب لنفسها من سرده الدموي خصوصًا بطريقته هذه التي لا تظهر أي نوع من المبالاة، لكنها تحافظ على رباطة جأشها

وتسـأله: لـمَ تواريـتَ بعدهـا؟ خصوصًـا أنـه لا يمكـن ربطـك بالجريمـة.

يجيبها: لـم أسـتطع أن أسـتمر في حيـاتي كأن شيئًا لـم يكـن. لقـد أصبحتُ رجـلاً مختلفًـا ولا أسـتطيع الاسـتمرار في تلـك الحيـاة. ثـم إنـني لربمـا أجـد تلـك المقولـة: «إن الظهـور يقصِـم الظهـور» حقيقيـة للغايـة. مـن الأفضـل أن أتـوارى عـن الأنظـار كمـا فعلـت ماريـا فويتشـيتا مـن قبـلي.

يمسـك جورجـي بتفاحـة ثـم يقـول: أتعلمـين؟ إن المـرء قـد يعتـاد قتـل النـاس، صدقيـني إنهـا متعـة. إنهـا شـهوة الـدم، وهـي أعظـم مـن أي شـهوة أخـرى قـد يعرفهـا بـشري.. ويتنـاول جورجـي قضمـة مـن التفاحـة.. ويمسـح بعـض عصيرهـا الـذي سـال مـن طـرف فمـه قائـلاً: معـذرة.

لا تنطـق كوزمينـا بـأي كلمـة، وهـي بحـق لا تجـد أي كلمـة تليـق بهكـذا موقـف.

- إنـني ممـتن بحـق لهـذه المـرأة ماريـا فويتشـيتا.. فقـد مكنتـني مـن أشـياء...

يتوقف ولا يكمل العبارة.

تقول كوزمينا: هل تجد تفسيرًا لما حدث معك؟

- أنتِ أخصائية القلوب، فلتخبريني أنتِ.. هل لديكِ؟

- حسـنًا، مـن الواضـح أن القلـب لـم يـزرع فيـك الرغبـة بقتـل صـلاح. فهـي كانـت موجـودة لديـكَ مـن قبـل. كل مـا في الأمـر أنـك وجـدتَ فيـه القـدرة عـلى تنفيـذ تلـك الرغبـة.

- صحيح.

- لكـن، أي صدفـة تلـك الـتي تجعـل مـن امـرأة غريبـة عنـك تراقبـك.. فتشـتهي أن توهبـك قلبهـا.. بـل تشـتهي أن تكـون ابنهـا بطريقـة مـا؟!

- كنـتُ في السـابق أعتقـد بـأن هـذا الكـون بـكل مـا فيـه مـن حيـاة هـو محـض صدفـة عبثيـة لا حكمـة فيهـا عـلى الإطـلاق. وإن كنـتُ أعـرف في الاحتمـالات شـيئًا، فـإني أراهـن بـأن احتماليـة أن تكـون حكايـة هـذه المـرأة صحيحـة أكـبر مـن احتماليـة نشـوء الحيـاة مـن بـاب الصدفـة المحـض في

هـذا الكـون.

تسأل كوزمينا: هل يعني ذلك بأنك قد غيّرتَ معتقداتك الآن؟

- ليـس تمامًـا، أنـا الآن كوكـب تغلّفـني غيمـة هائلـة مـن الشـك.. قـد تمطـرني يومًـا باليقـين.. ومـن يـدري مـا قـد ينبـت في تربـتي حينهـا؟

- وما الذي زعزع يقينك بالحقيقة التي كنتَ تعرفها؟

- لأن العلـم الـذي يفـترض بـه أن يكـون إلهـي لـم يتمكـن مـن إجابـة الأسـئلة الـتي في رأسي.. وقلـبي الجديـد كذلـك.

- لكنك يا بروف، بوشينسكي.. آ... آ...

- ماذا قلنا عن تلك الرسميات؟

تبتسـم كوزمينـا ثـم تقـول: حسـنًا، يـا جورجـي. أنـتَ تعلـم بـأن العلـم متحـرّك وقـد يجيبـك عـلى أسـئلتك فيمـا بعـد.

- هـل تعتقديـن بأننـا سنتمكن يومًـا مـا من أن نصعد في السـماء بمـا يكفي كي نـرى الله؟ هـل سنسـتطيع يومًـا مـن أن نقول كمـا نُسِـبَ لجاجارين*؟

تصمـت كوزمينـا للحظـات، ثـم تقـول: أنـا لا أصـف نفسي بالمؤمنـة. لكنـي لا أسـتطيع أن أتخيّـل بـأن الله لـه نفس نواميـس الكـون.. لـذا أرى أنـه يسـتحيل علينـا أن نبلـغ هـذا المبلـغ يومًـا مـا.

- وتقولين عن نفسك غير مؤمنة؟

يقول جورجي ثم يضحك.

- أتعلمـين عزيـزتي؟ في هـذه اللحظـة، أتمنـى لـو أن لي إيمانًـا كإيمانـك عـلى أقـل تقدير.

ولمَ؟ تسأل كوزمينا.

- لنفترض بأنه ليس ثمة إله، إذن فالبشرية هي من أوجدت فكرة وجود الله.. لكنها لم توجدها عبثًا. انظري إلينا، نحن جنس نمرود..

---

* نسـبت وكالات الإعـلام مقولـة «لا أرى أي وجـود لله هنـا» ليـوري جاجاريـن في أول رحلـة لإنسـان في الفضـاء.

متعطش للبطش والدماء.. أي وازع أخلاقي قد يوقف جشع الإنسان؟! لا شيء، لا شيء على الإطلاق. كان لا بد من وجود فكرة العدل المطلق.. وأنه ليس من خطيئة يرتكبها الإنسان ستمر دون عقاب. إن فكرة وجود الله ضرورية لكبح جماح شر البشرية.. ضرورية لزرع الأمل والإبقاء على هامش جيد من الرحمة في قلوب البشر. العلم الحديث يحاول أن يوجد فكرة متطورة، بديلة عن الله فيقولون في علم النفس مثلاً، بأن الإنسان يحتاج إلى محاربة ظاهرة الانفصال، وهي تعني بأن الإنسان يشعر باللا قيمة وأنه عديم الأهمية عندما يقف وحيدًا، ضئيلاً أمام عظمة الطبيعة. وهذا المفهوم قد يكون هو ذاته الذي جعل البشر يُثبتون فكرة وجود الله.. ويقولون اليوم، بأن علاج الانفصال هذا يكمن بالحب؛ إنني أحبك فيجب أن أكون قادرًا على أن أقول: إنني أحب فيك كل شخص، أحب من خلالك العالم، أحب نفسي أيضًا. الحب هو نفاذ فعّال إلى الشخص الآخر الذي تُخمِد الوحدة رغبتي في معرفته. إنني في فعل الاندماج أعرفك، أعرف نفسي، أعرف كل إنسان وأنا لا أعرف شيئًا. الحب هو الطريق الوحيد للمعرفة والذي يرد على تساؤلي في فعل الوحدة، في فعل الحب، في فعل إعطاء النفس، في فعل النفاذ إلى الشخص الآخر، أجد نفسي، أكتشف نفسي، أكتشف كلينا، أكتشف الإنسان.

هذا جميل.. تقول كوزمينا.

فيرد جورجي: صحيح، هو جميل بحق. لكنه هراء! أترين؟ توروك على سبيل المثال إنه يحبني كما قلتِ من قبل. لكنه في الواقع ليس كذلك. بل إنه يغار مني لمصاحبتي ماريا. إن النفس البشرية يا كوزمينا شديدة التعقيد.. ولا يمكن لها أن تتحرر من مشاعر الحسد والغيرة.. قد يحاول توروك أن يبدو متحضرًا وأنه لا يمانع بصحبتي لماريا، لكنه في قرارة نفسه يلعنني ويتمنى لو أنني أختفي من على وجه البسيطة. وأريد أن أضيف لكِ أمرًا.. إنني كذلك أبادله ذات الشعور.. إنني أفضّل

على أن أكون بقرة يحلبني الناس صباحًا، وأن ينكحني ثور عديم الرحمة كل ليلة.. على أن أكون مكانه. لا يمكن للبشرية أن تحلّ كل شيء بالحب، فإن الحب بحد ذاته لا يكفي. بل يستحيل عليّ محبة بعض البشر. من عساه يحب عدوه على سبيل المثال؟ ولستُ مضطرًا لأن أحب توروك كي أكون لطيفًا معه. إنما أكون معه كذلك لأن أخلاقي تفرض عليّ ذلك، لأن إنسانيتي تفرض عليّ ذلك. مهما بلغت كراهيته في قلبي. إن الإنسان هذه الأيام يأكل ويتحاور ويتبادل الابتسامات مع أقرانه كأي إنسان متحضر.. لكنه يرجع إلى أكثر غرائزه بدائية عندما يقترن الأمر بالنفوذ أو المرأة. وهذه البدائية هي ما يستحق منا أن نحاربها.. لا أن نحارب وجود الله.

وتقول عن نفسك متشككًا؟ تقول كوزمينا.

فيبتسم جورجي ويقول: إن في قلب أعتى الملحدين هامشًا ضئيلاً من الإيمان. كل ما هنالك أننا نوجد شيئًا ما نعكف إليه عابدين.. أي شيء.. عدا الله.

لم تقل لي، تقول كوزمينا.

- ماذا؟

- ما السبب الذي جعلك تحدّثني بكل ذلك؟ ألا تخشى أن أبلّغ عنك؟

- حسنًا، إن السبب الذي دعاني لأن أحدثكِ بما حدثتكِ به وبأن أفتح لكِ قلبي كما يقولون.. هو أنكِ كنتِ تأتينني في منامي. لم تكن تلك الليلة في البار أول مرة أراكِ فيها، لقد رأيتكِ مرارًا. رغم أني لم أعرف لكِ اسماً قط.

*****

١٧٦
١٧٧
١٧٨

الفصل التاسع عشر
المفتش كوجوكارو

مركز الشرطة - بوخارست

في مركـز شرطـة بوخارسـت في وسـط المدينـة، يجلـس المفتـش كوجـوكارو عـلى مكتبـه وهـو يتحـدث في الهاتـف بصـوت منخفـض. هـو رجـل بديـن، لـه شـارب ضخـم يغطـي فمـه، أصلـع، لـه جمجمـة عظيمـة.. كان يملـك وجهًـا مـن تلـك الوجـوه الـتي يمكـن أن نطلـق عليهـا «وجـه لاعـبي البوكـر» أي أنـه يسـتحيل عـلى المرء أن يتبـين مـا إذا كان سـعيدًا أو تعيسًـا.. ويتميـز في حديثـه بسـعلة خفيفـة متكـررة في بعـض لحظـات الصمـت. هـو رجـل ذكي دون شـك.. لربمـا تشـهد علـى ذلـك تلـك الجمجمـة العظيمـة.

ينهـي المفتـش مكالمتـه ثـم يقـف ويتجـوّل في أنحـاء المكتـب واضعًـا يديه مشـبكتين خلـف ظهـره. ثـم ينـادي عـلى مسـاعده بصـوت عـالٍ: ديمترسـكو، تعـال إلى هنـا.

يـأتي ديمترسـكو عـلى عجـل، وهـو رجـل في العقـد الثالـث مـن عمـره، طويـل القامـة، لـه رأس يبـدو وكأنـه ممطـوط مـن النحالـة.

- نعم سيدي.

- هل من أخبار عن قضية بوشينسكي؟

يسأل المفتش ثم يسعل سعلة خفيفة.

- لا، سيدي.

فيتوقـف المفتـش عـن تجوالـه في الغرفـة وينظـر مليًـا إلى مسـاعده البائـس، الـذي يعلـم جيـدًا مثـل هـذه اللحظـات الـتي تسـبق توبيخًـا عنيفًـا مـن المفتـش.

لكـن المفتـش حافَـظ عـلى هدوئـه، بـل إنـه قـال: لقـد وصلتـني إخباريـة لتـوّي أن رجـلاً يطابـق مواصفـات جورجـي بوشينسـكي موجـود في بـران. ثـم يسـعل سـعلة خفيفـة أخـرى.

هل تود بأن نرسل قوة لاعتقاله؟ يسأل المساعد.

- ألا تجد أنه من الغريب أن يوجد البروفيسور بوشينسكي في بران؟ ماذا عساه يفعل هناك؟

وسعلة خفيفة إضافية.

يجيبه المساعد: لربما ذهب هناك ليختبئ.

يومئ المفتش برأسه ويقول: ربما. اسمعني جيدًا يا ديمترسكو، إن الخيط الذي نملكه على المافيا طويل جدًا.. قد ينتهي عمري قبل أن نصل إلى آخره. بينما قد يكون جورجي فرصة سانحة.. نعم، قد يكون ضحية مثل أخيه. لكنني أفضّل أن تظل أعيننا عليه. ولن أضيع هذه الفرصة من يدي. أريدك أن تتحرى الأمر، فإن كان حقًا جورجي هناك فأريدك أن تبقيه تحت ناظريك.. وإياك أن يزيغ عنه بصرك أو أن يشعر بأنه تحت المراقبة. هل تفهمني؟

سعلة أخرى.

- بكل تأكيد سيدي.

كان المفتش يريد استجواب جورجي منذ الأيام الأولى، لكن اختفاء جورجي المريب جعله مشتبهًا به. رغم أن أسلوب الجريمة يحمل بصمات المافيا. لكن الاعتداء الوحشي على وجه ورأس الضحية يدل على أن الجريمة كانت بدوافع شخصية، حسب رأي المفتش. كما أنه لمَ قد تضطر المافيا لإخفاء الجريمة بمثل هذه الطريقة؟ فعادةً تقوم المافيا بإرسال رسائل معينة في جرائم القتل التي تنفذها بالتحديد. هذا بالإضافة إلى أن المافيا تستخدم عيارًا ناريًا شائعًا كـ 9 ملم أو 7 ملم. لكن استخدام عيار 10 ملم، والذي شهد الشهود بأن صلاح كان يمتلك مسدسًا من عيار مشابه كان يوحي بأن الجريمة كانت إما سرقة جرت بشكل سيئ، وإما أن أحد المقربين من صلاح هو الفاعل. وكان جورجي باختفائه المريب مناسبًا تمامًا لهذا الوصف.

لم يحسم المفتش أمره بعد، فهو لا يتهم جورجي بشكل مباشر، لكنه يرى أن هذا احتمال ليس ببعيد. لكنه على أي حال قام بتدعيم

الشائعات بأن جورجي متهم بالفعل بقتل صلاح، على أمل أن تساعده تلك الشائعات في إيجاد جورجي بشكل أسرع.

حيلة دنيئة، لكنها لن تضر. حسب رأي المفتش كوجوكارو.

• كان سير التحريات مليئًا بالثغرات، وكان اعتقاد المفتش جازمًا بأنه وحده جورجي قد يتمكن من ملء تلك الثغرات.

وكانت الثغرة الكبرى هي أن ليس ثمة تحليل ما للـDNA، فقد كانت الجثة متفحمة عن آخرها، وعليه فإنه كان يستحيل القيام بفحص DNA للتأكد من هوية الضحية، وبما أن الجثة كانت تفتقد إلى الفك والأسنان فإنه كان يستحيل التأكد يقينًا من هوية الضحية. لذا فإنه عمليًا لم يكن ثمة ما يثبت أن صلاح قد قُتل وأن الجثة المحترقة هي جثته. وكون أن السيارة كانت من نفس الطراز والموديل لسيارة صلاح، ليس إلا دليلاً ظرفيًا آخر.

إن إشاعة فحص الـDNA تلك هي بطاقة أخرى موجودة لدى المفتش كوجوكارو لعبها.. وهو على الأرجح لن يتردد في أن يلعب بها مرةً أخرى، وبشكل متقن أكثر إن لزمت الضرورة.

وكان المفتش قد وضع كل أفراد العائلة تحت المراقبة من قبل، وهو يعلم جيدًا عن تحريات كوزمينا وعن ترددها على توروك ووالديّ بوشينسكي. وهو متردد فيما يخصها.. تارة تراوده الشكوك على أنها قد تكون شريكة محتملة لجورجي، وتارة أخرى نجده يبرئها من كل تلك الظنون بداعي سمعتها المرموقة وصيتها العلمي المحترم.

كان المفتش مؤمنًا بأنه ليس ثمة شيء عنده يسقط بالتقادم. فمهما بلغ القِدم في الجرائم التي تصل إليه فإنه يجد الجاني ويقدمه للمحاكمة دومًا.. ويحرص على أن تتوافق الأدلة مع قانون التقادم في رومانيا، مستغلاً أي ثغرة قانونية تسمح بفتح القضية من جديد.. وأن تأخذ العدالة مجراها كما يقول.

- بالطبع لن تصل قضية بوشينسكي لمرحلة التقادم تلك.

يقـول كوجـوكارو. فهـو لـن يسـمح لهـا بذلـك، وعـلى أي حـال، مـا زال أمامـه سـنين طويلـة جـدًا عـلى ذلـك. وحـتى إن وصلـت.. فلـن يغـيّر ذلـك شيئًا عنـد رجـل عنيـد ككوجـوكارو.

*****

١٨٣
١٨٤

الفصل العشرون
الصدمة

بران - برازوف

تجلس كوزمينا وحدها في غرفتها بضع ساعات، بعد أن غادرها جورجي إلى عمله، دون أن يعطيها توضيحات أكثر عن كونه رآها في الحلم.. ودون حتى أن تعرف إذا ما كان ينوي رؤيتها ثانية أم لا. وكانت كوزمينا تخشى أن تكون أحلامًا من النوعية التي أوحت له بأن يقتل أخاه أو من تلك الكوابيس التي تحدّث عنها والتي تكثر فيها الدماء.

وطفقت كوزمينا تفكّر: ماذا يعني أن يراني في المنام؟

لم تستطع كوزمينا أن ألا تفكر في توروك. هو أخصائي في علم النفس، وهو أيضًا صديق لجورجي، وقد يملك تفسيرًا لرؤية جورجي لها في المنام. لكن جورجي لا يحب توروك. وقد أكد لها أن توروك لا يطيقه كذلك، رغم أنه يبدو على عكس ذلك تمامًا.

هي في حيرة من أمرها، وقد بدأت الشمس في المغيب، فآثرت أخيرًا أن تنزل إلى البار.. لتحتسي بعض الشراب لربما يلهمها بأمر ما.

وبينما كانت في طريقها إلى الأسفل دقّ هاتفها، وإذا به توروك. يا للمصادفة العجيبة! تقول كوزمينا. فتعود مرة أخرى إلى غرفتها كي تحظى ببعض الخصوصية في مكالمتها هذه.

- آلو.. د. دالكا.. أتمنى أنكِ تقضين وقتًا ممتعًا مع دراكولا.

- كيف عرفتَ أنني ذهبتُ إلى بران؟

- أوه عزيزتي! أنا من أهداكِ القسيمة، هل نسيتِ؟ ثم أنكِ كنتِ تحتاجين بعض الخلوة مع الطبيعة. لم يكن صعبًا عليّ أن أحزر مكانك.

- حسنًا.

- هل أنتِ بخير؟

يسأل توروك. فتجيب كوزمينا: هل أستطيع أن أسألك شيئًا؟

- بالطبع، أي شيء على الإطلاق.

- ماذا تعني الأحلام؟

- ولِمَ تسألين؟

- أرجوك، أجبني دون أسئلة.

يصمت توروك للحظات ويبدو أنه كان يفكر.. ثم يقول: حسنًا، لا شيء.

- ماذا تعني بلا شيء؟!

- يعني لا شيء، لا شيء على الإطلاق. كان هناك اعتقاد سائد بأن الأحلام هي ما يظهر من العقل الباطن على سطح النفس البشرية.. وكان فرويد يعوّل الكثير على تفسير الأحلام.. والذي كان يعدّها بوابة خلفية للا وعي.. لكن العلم الحديث لم يجد أدلة كافية تدعم كلام فرويد هذا.. ومن المرجح أن الأحلام ما هي إلا نشاط عبثي للدماغ في توليد صور ومشاهد لا قيمة لها على الإطلاق. وبعبارة أخرى، إن العقل يستخدم ما هو موجود فعلاً بالذاكرة في خلق مشاهد عبثية، يبدو أن الدماغ بحاجتها أثناء قيامه في أعمال الصيانة الروتينية.

يقول ذلك مازحًا.

لم تنطق كوزمينا. فهي تفكّر فيما سمعته للتو.. وتستعيد تلك العبارات التي قالها لها جورجي: «أنكِ كنتِ تأتيني في منامي. لم تكن تلك الليلة في البار أول مرة أراكِ فيها، لقد رأيتكِ مرارًا».

«لطالما ظننتُ أني لا أملك المدخل لتلك القدرة الوحشية التي يتحدثون عنها. لكنني عرفت ذلك.. بل رأيته في منامي مرارًا من بعد أن وُهب إليّ ذلك القلب».

«الأحلام الأخرى كانت غير منسجمة، بل هي أشبه بالمشاهد المتفرقة التي لا ترتبط بعضها ببعض بسياق معيّن. كلها تتحدث عن جثث معلّقة على أوتاد خشبية كبيرة وليست الجثث معلّقة بمعنى تعليق بحبال ولا حتى دبابيس.. بل كانت الأوتاد تخترقهم، كانت

الأوتاد عبارة عن خوازيق».

- آلو.. آلو.. د. دالكا، هل ما زلتِ هنا؟

- أجل، أجل.. د. توروك. أريد أن أخبركَ شيئاً.

- أنا أسمعك.

يقول توروك. فتخبر كوزمينا توروك بلقائها جورجي، أخبرته بكل شيء. أخبرته عن ماريا فويتشيتا وعن الجريمة وعن كل ما حدّثها عنه جورجي.. وحتى تلك الأحلام التي تعنيها. وستكتشف كوزمينا مدى فداحة فعلتها هذه فيما بعد.

كان توروك يصغي إليها باهتمام، وعندما انتهت هدّأ من روعها، ثم فكّر قليلاً وقال: لا بد من أنه قد جُنَّ جنونه. حسنًا، ابقي عندك.. وسآتيكِ حالاً.

لم تخفف مكالمتها مع توروك من هلعها.. بل زادته.. وكانت أفكارها تتجه باتجاه الأسوء، بأن يكون جورجي رجلاً مضطربًا نفسيًا فيأتي ليجهز عليها، كما أجهز على أخيه من قبل.

وفي هذه اللحظات يطرق أحدهم الباب، فتجفل كوزمينا. وتتقدّم نحو الباب وهي على يقين بأنه جورجي. كان عليها الحفاظ على رباطة جأشها، وأن تهادن جورجي وتسعى لئلا يهرب أو يُقدِم على عمل جنوني.. فقررت أن تتحلى بالشجاعة وتفتح له الباب. كان قرارًا جريئًا بالفعل من كوزمينا.

تفتح الباب، وكان جورجي بالفعل كما توقعت. سمحت له بالدخول، فدخل دون أن ينطق بكلمة.

كان الجو باردًا بعض الشيء، فقد بدأت نسمات الليل البارد بالدخول في اختلاف عن الطقس بالأمس الذي كان معتدلاً. وكان جورجي يلبس معطفاً، والذي قام بنزعه عنه عند دخوله، وألقاه دون مبالاة على أريكة كانت إلى جوار الكرسي الذي جلس عليه جورجي. تقدمت كوزمينا وتناولت المعطف كي تقوم بتعليقه. وعادت وجلست على ذات الأريكة.

يعتذر جورجي بكل أدب عن اضطراره للذهاب بتلك الطريقة. فتبدي كوزمينا تفهمها لذلك.

- هل تودّ أن أسكب لك بعض الشراب؟

فيرد جورجي ممازحًا: ستبدئين الشرب مبكراً اليوم.

فتقول كوزمينا: يشعرني بالدفء في مثل هذا الجو البارد.

يومئ جورجي برأسه، ويقول: حسنًا، سأشاركك الشرب.

تتقدم كوزمينا اتجاه الميني بار وتسكب كأسين من الروم. وتقدّم واحدًا منهما لجورجي، الذي يشكرها كما يفعل النبلاء.. ويحتسي بضع رشفات.

لم يسبق لكوزمينا أن خافت من رجل.. وهي التي تنظر إليهم تلك النظرة الدونية وكأنهم أقل مرتبة من جنسها الأنثى على سلّم التطور. لكنها تجد نفسها اليوم أمام رجل قد يكون قاتلاً سفاحًا مضطرب العقل، لا ينطبق عليه الوصف التقليدي لبقية الرجال الذين تعاملت معهم من قبل.

كانت قد وضعت في رأسها إستراتيجية لإلهاء جورجي، لكن طبيعتها كامرأة قوية تتغلب على تلك الإستراتيجية، فقامت بالسؤال عن أحلام جورجي مرةً أخرى.. وهي تحاول أن تستشعر ما إذا كان جورجي يشتمّ خوفها كما تفعل الذئاب.

- لم تخبرني عن طبيعة الأحلام التي رأيتني بها.

لم ينطق جورجي، ظل صامتًا، يتجرع شرابه بهدوء. زادت ردة فعله تلك من توتر كوزمينا.. لكنه كسر صمته قائلاً: كانت تراودني تلك الصور المريحة لامرأة لا أعرفها وسط تلك الكوابيس وكل تلك الدماء، كانت تزرع في داخلي شعورًا غريبًا بالأمان. تخيلي، رجل يشعر بالأمان لرؤيته امرأة.

فتقول كوزمينا: أنتَ تعلم بأن تلك الأحلام قد لا تعني شيئًا.

فينظر جورجي إلى كوزمينا متعجبًا: أنتِ من يقول ذلك يا أخصائية

القلوب؟! إن هذه الأحلام كانت حقيقية جدًا.. إنها تعبير صريح عن تلك الذاكرة الجديدة. تبًا! إن الأمر أشبه بوضع شريحة ذاكرة خارجية في الهاتف المحمول.

- هل فكّرت في اللجوء إلى طبيب نفسي؟

تسأل كوزمينا: أقصد، بشكل مهني. لا كعلاقتك بتوروك أو ماريا.

- لم أتحدث يومًا لتوروك عن أي من هذا. لكنني حاولت أن أفعل مع ماريا، لكنها لم تصغِ أبدًا. ليس لأنها لم تشأ أن تصغي، بل لأنها طبيبة نفسية فعلاً.. لربما كان من يمارس أمرًا بشكل مهني يفقد الرغبة في ممارسته في حياته اليومية. أو أن الأمر يتعلق بطبيعة ماريا.. لربما كان يتوجب عليّ أن أدفع لها كي تسمعني.

ثم يضحك: هل تعتقدين بأني جننتُ؟

فتجيبه كوزمينا: لقد مررتَ بالكثير، ومن الطبيعي أن يترك ذلك أثرًا في نفسك. لكنني لا أراك قد فقدتَ عقلك.

- جيد.

يقول جورجي. ثم يردف: من الجيد ألا أفقد عقلي.

تحاول كوزمينا المناورة فتسأل: هل أحببتها؟

- كان الحب لديّ نتيجة تفاعلات كيميائية وقتها، كنتُ أؤمن بأن الحب ليس إلا وهم. حيلة ابتكرتها الطبيعة كي تسمح بتكاثر الجنس البشري. وأن الوقوع فيه أمر بسيط للغاية.

- والآن؟

- الآن، لستُ أدري.

ثم يفرغ الجرعة الأخيرة من الروم في جوفه.

- هل أسكب لك المزيد؟

فيقول: نعم، أرجوكِ. تقوم كوزمينا وتسكب له كأسًا جديدة أخرى وتقدمه له.

- وأنتِ؟ هل سبق أن أحببتِ أحدًا؟ يسأل جورجي.

فتومئ كوزمينا برأسها نافية. وتقول: لستُ أملك الوقت لذلك.

فيقول جورجي: أجل، لا وقت.

بدا جورجي وكأنه يتوقع أي سبب وكان ليوافقها عليه أيًا كان. إن الذي يؤمن بأمر ما سيظن بأنه من البديهي أن يكون الناس مثله.. ولن يحتاج إلى مبررات حتى وإن كان يبدو كمن يسأل عنها. قد يكون جورجي الآن متشككًا فيما يملك من معتقدات، لكنه لم يزل مؤمنًا بما يملكه من معرفة إلى حد ما.

ثم تقول كوزمينا: لقد انفصلتُ عن صديقي منذ أيام.

- أحقًا؟ ولِمَ ذلك؟

- لا أدري! كان لطيفًا، لكن...

ولم تكمل العبارة.

- لكن ماذا؟

- لم أشعر به في قلبي.

فيقول جورجي: لم أفكر في قلبي يومًا عدا كونه مريضًا. كانت علاقاتي مع النساء تشبه المقايضة، آخذ حاجتي الجسدية منهن في مقابل أمل بالاستمرارية. هي مقايضة لا خسارة فيها. فكما لديّ حاجتي الجسدية فإنهن يملكن مثلها، لذا المكسب هنا مشترك. أما الاستمرارية.. فهذا شيءٌ لا أملك أن أعطيه. أتعلمين؟ عندما بلغنا أنا وماريا عامنا الثاني معًا، استبشر والداي خيرًا ظنًا منهما أننا على طريق الاستقرار والزواج، ومن ثم إنشاء أسرة. لكنني لم أكن لأفعل ذلك.

ولِمَ ذلك؟ تسأل كوزمينا.

- لم أكن يومًا مؤمنًا بمؤسسة الزواج، أشعر بأنها تتضمن الكثير من النفاق. نعم، من الممكن أن أطلب من ماريا يومًا أن نعيش معًا، لكن زواج؟ لِمَ؟

إنه استقرار، تقول كوزمينا.

- بل هو نوع من الضمان للاستمرارية.. فنحن نعلم حقيقة أن

تلك النار المتقدة في بداية كل علاقة أو زواج تخبو مع الزمن.. وضمانًا للاستمرارية نقوم بكتابة عقد يضمن عدم استغناء أحد الطرفين عن الآخر بسهولة. والسؤال هنا: هل أحتاج لعلاقة مع شخص يحتاج لضمان لاستمراريتي معه؟ أفضّل أن أكون معها بملء إرادتي على أن أكون معها بسبب عقد ما.

لا أحد يجبرك على البقاء معها. تقول كوزمينا.

- إن الأمر ليس بهذه البساطة؛ الطلاق مكلف جدًا.

لمَ تفكّر في الجانب السيئ فقط؟ تسأل كوزمينا.

- إنه ليس الجانب السيئ، لكنني أرفض أن يملي عليّ أحدهم أن أكون مع أي أحد. أو على الأقل هكذا كنتُ أفكر حينها. كان هذا الجزء المتمرد من جورجي. هو يطلب الحرية المطلقة في هذا الخصوص، لا ارتباط، لا التزامات.. لا شيء. إنما هي كلمة منه إليها. نحن شخصان بالغان عاقلان راشدان. لماذا نطلب إذنًا من أحد كي نكون معًا؟

لم تجب كوزمينا. فأردف جورجي: كان صلاح يتحدث عن الزواج كثيرًا.. وكم أنه يود الارتباط والزواج وتأسيس أسرة.. أتعلمين بأنه كان يحاول الإنجاب؟ لكنه لم يفلح.

لم أكن أعلم بأنه على علاقة مع إحداهن، تقول كوزمينا.

- هي فتاة طيبة ذات أصول مولدافية، أعجب صلاح بها جدًا. وهي كذلك في البداية، كانت تقول إنها تحب الرجال الخطرين؛ يا لها من حمقاء!

- وماذا حدث؟

- تزوج منها سرًا، لدرجة أن والديّ إلى اليوم لم يعرفا عنها.. حتى أنا عرفت عنها بالمصادفة.. وتحرّيتُ حتى علمتُ ما أحدّثكِ عنه الآن. ما أعرفه هو أنه كان يحاول الإنجاب ولم يفلح، فكان يحملّها المسؤولية ويعاملها بقسوة.. حتى ذات يوم اختفت ولم نسمع عنها ثانية. وعندما سألنا عنها صلاح قال بأنه طلقها وقد ذهبت إلى مولدافيا حيث

أقاربها. كان صلاح دائمًا يحصل على ما يريد، كثير المغامرات مع النساء. وكثير الحظ في ذلك أيضًا. بينما لم أكن كذلك. كنتُ متحفظاً، وليس من السهولة عليّ أن أقدم على تجربة مع إحداهن. إننا نعيش في عالم يحب الناس فيه الرجل الطيب، لكنهم لا يتوانون عن هضم حقه. وهم يكرهون الرجل اللئيم، لكنهم يهابونه، ويعطونه أكثر مما يستحق اتّقاءً لشره. هل تعتقدين بأنني الآن غدوتُ رجلاً سيئًا؟ نعم، لقد قمتُ بقتل أخي. وأنا فخور بذلك.. كان لا بد له من أن يموت على أي حال.. لكن، بعد ماذا؟ بعد أن يدمّر العائلة كلها؟ فأي ذنب قد أكون قد اقترفتُ إن جنّبتُ العائلة الضرر بقتله مبكرًا؟ لقد ضرب أمي ضربًا مبرحًا؛ كان لا بد لي من قتله. كان لا بد له من دفع الثمن. ماذا لو لعبتُ دور الله يومًا وطبقتُ العدالة بنفسي وكما يجب لها أن تكون؟! إن كان الله موجودًا فلمَ يسمح لأمثال صلاح بالتمادي على بقية خلقه من أمثالنا هكذا؟ لمَ يسمح لكل هذا الظلم بأن يكون؟

لم تجد كوزمينا الكلمات كي ترد على مثل هذا الخطاب. وبدت تشعر بأنها لربما قد بالغت في خوفها منه.

وفي لحظات بدت كأنها من مشهد سينمائي يُعرض بسرعة، كُسِر الباب ودخل منه رجال القوات الخاصة مدججين بالسلاح يصرخون في جميع الاتجاهات ويطلبون منهما الانبطاح أرضًا.. لم تكن كوزمينا تسمع ما يقولون وكأن في أذنيها صمماً.. اكتفت بالنظر إلى الرجل المسلّح أمامها تارة وإلى فوهة سلاحه الأوتوماتيكي تارة أخرى.. لكن الرجل دفعها فوقعت أرضاً، وقلبها على بطنها شادًا يديها إلى الوراء وموثقًا إياها.. نظرت كوزمينا باتجاه جورجي فوجدته في نفس حالها، اللهم كان ثمة جرح في رأسه ينزف الدم. وبينما هي تنظر إلى جورجي حتى صرخ أحد الرجال المسلحين بأن المنطقة آمنة. فيدخل المفتش الذي بدا ضخمًا لهما وإلى جواره المساعد الذي بدا ضئيلاً للغاية وكأنه قد ينمو على كتف المفتش.

بدا المفتش مبتسمًا، ولم يقل الكثير. كان كل ما قاله هو: خذوهما. تلحق بها سعلة خفيفة.

*****

١٩٤
١٩٥
١٩٦

الفصل الواحد والعشرون
التحقيق

مركز الشرطة - بوخارست

تمَ ترحيل جورجي وكوزمينا فوراً إلى مركز الشرطة في بوخارست بوسط المدينة. أما المفتش كوجوكارو فيدخل إلى مكتبه منتشيًا بهذا الانتصار، فقد بدأت الضحايا تعلق بنسيج العنكبوت الذي أمضى فترة طويلة في حياكته.

يدخل عليه المساعد ثم يقول: سيدي، إن السيد توروك ما يزال في انتظارك.

فليدخل، يقول المفتش.

يدخل توروك متورد الوجنتين من فرط ما استبد به من غضب. ثم يقول: لم يكن اتفاقنا هكذا.

فيرد المفتش ببرود: مرحبًا دكتور.. أي اتفاق؟

يزداد حنق توروك ويقول: لقد أبلغتك عن مكان جورجي وأخبرتك أنه قد يحتجز كوزمينا رهينة عنده.. لا أنها شريكته.

- أها، إن هذه تبدو إخبارية بالنسبة لي لا اتفاقًا. ثم من قال بأنها شريكته.

يسعل سعلة خفيفة.

- إذن لماذا تُبقي عليها في السجن؟

- إنها قيد التحقيق يا عزيزي.

ويسعل مرة أخرى. ثم يردف: أرجو المعذرة منك، فإنه ثمة تحقيقات ضرورية في انتظاري. سيتم إطلاق سراح الدكتورة كوزمينا قريبًا، أعدك بذلك.

ويقف المفتش وهو يسعل سعلة خفيفة، ويذهب باتجاه الباب في انتظار انصراف توروك. الذي يقف ببطء ويقول: حسنًا، يستحسن بك أن يُطلق سراحها قريبًا كما تقول.

ويهم بالخروج من الباب، فيمسك المفتش بيد توروك قائلاً: د. توروك، لستُ ممن تودّ أن تهددهم.

ثم يرخي قبضته عن يد توروك ويربّت مكانها بحركة تبدو كمن ينفض الغبار. ثم يردف: هي مجرد نصيحة لك. وكن واثقًا من ذلك، وواثقًا أيضًا بأني رجل أفي بوعودي.

لم ينطق توروك بكلمة، وانصرف.

ينادي المفتش على مساعده، ويقول: أحضر المتهمة.

يغيب المساعد ويرجع المفتش ليجلس خلف مكتبه وينهمك بالأعمال الورقية. يعود المساعد بعد قليل، جالبًا كوزمينا ويُدخِلها مكتب المفتش ليفكّ لها قيود يديها داخل المكتب ثم ينصرف.

تمسح كوزمينا بيدها مكان القيد وهي تقول: أنا أطالب بمعرفة سبب احتجازي هنا.

لم ينظر إليها المفتش على الإطلاق، بل ظل منهمكًا في أعماله الورقية وكأنه لم يسمع شيئًا.

مرت بضع دقائق ولم يتغير شيء، فتقدّمت كوزمينا نحو المكتب لتجلس إلى كرسي التحقيق. ولم تجد أي ردة فعل لدى المفتش. فمدّت يدها وانتزعت بعض الورق من على المكتب. فتوقف المفتش عن العمل ونظر إلى كوزمينا. فقالت كوزمينا: جيد، نلتُ انتباهك أخيرًا.

فيقول المفتش: وبعد؟

فتقول كوزمينا وهي تضع الورق ثانية على الطاولة: هل لي أن أعرف سبب احتجازي؟

- بالطبع، نحن نحتجزك ضمانًا لسلامتك. ثقي بأنكِ في أكثر الأماكن أمانًا في الدنيا.

كان المفتش يراوغ لا أكثر.

- لسلامتي ممّ؟ ومن قال بأني بحاجة لحمايتك؟

- أرجو أن تهدئي.. ولنتحدث قليلاً، كنوع من الدردشة لا أكثر، هي

إجـراءات روتينيـة.

تحاول كوزمينا كبح جماح نفسها وتقول: حسنًا، لننتهِ من هذا.

يتحدّث المفتش إلى جهاز وُضع على مكتبه: أدخلوا الكاتب.

فتدخـل امـرأة شـابة، تلبـس النظـارات وتجلـس إلى المكتـب المجـاور وتتحـضر للكتابـة. يسـعل المفتش قليـلاً، ثـم يقـول: مـا طبيعـة علاقتـك بجورجـي؟

فتقول كوزمينا: هو بالنسبة لي حالة مهنية.. أحاول دراستها.

- ولهذا كنتِ تتحرين عنه طوال المدة السابقة؟

- أجل.

- هل التقيتِ به خلال الفترة السابقة؟

- لا.

- لقـد ألقينـا القبـض عليكمـا معًـا في غرفتـك، هـل كنـتِ تأوينـه أو تسـاعدين في إخفائـه؟

- ماذا؟

تقـف كوزمينـا معترضـة: اسـمع حـضرة المفتـش، إذا كنـت تنـوي اتّهامـي فوجّـه اتّهامـك، وإلا فـلا يحـق لـك احتجـازي أكـثر.

يجيب المفتش بتهكم: عبارة ممتازة. هل حفظتِها من أحد الأفلام؟

ويبتسـم بسـخرية واضحـة. ثـم يقـول: حسـنًا، سأسـايرك في لعبـة الجـرأة الـتي تلعبينهـا وأطلـق سراحـك، لكـن اعلمـي أنـه يحـق لي اسـتدعاؤك للاسـتجواب مـتى شـئت.

لم تجب كوزمينا وتوجهت نحو الباب لتخرج.

يطل المساعد بعد خروجها ويسأل: ألم ترد استجوابها سيدي؟

فيجيبـه المفتـش: لا بـأس، سـتعود ثانيـةً.. كمـا أن الاسـتجواب ليـس الطريقـة الوحيـدة لجمـع المعلومـات.

ينهي هذه العبارة مبتسمًا ويردف: جهّز المتهم للتحقيق.

يـأتي المسـاعد بجورجـي ويدخلـه في غرفـة أخـرى مخصصـة للتحقيـق.

تلك التي توجد فيها تلك النافذة الزجاجية والتي تكون من جهة مرآة وتكون شفافة من الجهة الأخرى، لتسمح برؤية من في الغرفة.

هي فارغة عدا من طاولة وكرسيين. يُدخِل المساعد جورجي ويجلسه على أحد الكرسيين دون أن يفكّ له قيده.

تمرّ الدقائق ثقيلة على جورجي. تمر نصف ساعة ثم ساعة دون أن يأتي أحد. بعدها يدخل المفتش بهدوء ودون أن ينطق بكلمة يجلس على الكرسي.. واضعًا مجموعة من الأوراق أمامه.. ولا يفعل شيئًا آخر عدا تأمل وجه جورجي. كان جورجي يود أن يبادر بالسؤال، لكنه كان يُعدل عن ذلك في كل مرة لشعوره بأن ذلك ما يريده المفتش.

تمضي نصف ساعة إضافية، دون أي كلمة. ثم يبدأ المفتش بالقول: أنا أعلم بأنك قتلتَ صلاح.

- إذن لمَ أنتَ هنا؟

- كي أسمع منكَ، وأنا أعلم أني سأسمع منكَ ما أتوقعه. فلتبدأ بالتغريد.

يبتسم جورجي ويقول: تغريد؟ هل أبدو لكَ كـ«تويتي» يا حضرة المفتش؟

- كفّ عن المراوغة وابدأ بالكلام.

- ماذا تريدني أن أقول؟

- ما أريد سماعه بالضبط، وهو لا شيء سوى الحقيقة. إن كل الأدلة تشير إليك فلا داعي للإنكار.

- أنتَ تكذب، أنت لا تملك شيئًا ضدي.

يقولها جورجي مبتسمًا رغم الجرح الذي جفّ على جبينه، ورغم المظهر المزري الذي بدا عليه.. إلا أنه كان بابتسامته تلك قويًا كفاية.

هل لكَ أن تفسّر لي سبب وجودك في بران؟ يسأل المفتش.

سئمتُ من عملي وأردتُ التغيير. يقول جورجي.

- تترك عمل أستاذ في جامعة بوخارست لتعمل في مكتب متواضع

للسياحة في بران فقط من أجل التغيير؟!

- أجل.

- حسنًا، أين كنتَ في 25/7/2013؟ وهو التاريخ المفترض لموت الضحية التي نسبت جثتها لصلاح.. وهي أيضًا ما أثبتت التحريات أنه آخر يوم شوهد فيه صلاح على قيد الحياة.

- كنتُ في بيتي.

- هل شاهدك أحد؟

- أيها المفتش، لا تتعب نفسك. أرجوك، إن كانت هناك أدلة ضدي فعجّل لي بها وواجهني.

لم يجب المفتش، ظلّ صامتًا وينظر في عيني جورجي اللتين بدتا الآن مرهقتين. وأخيرًا قال: حسنًا، إنك تريد أن تسلك الطريق الأصعب إذن. لا بأس. ثم يقف ويغادر الغرفة. ويأتي المساعد فيعيد جورجي إلى زنزانته ثانية.

*****

الفصل الثاني والعشرون
ما بعد الصدمة

الفندق- بوخارست

عـادت كوزمينـا إلى غرفتهـا في أحـد فنـادق بوخارسـت، ورويـدًا رويـدًا بـدأت بالخـروج مـن صدمـة مـا حـدث.. لا يوجـد تفسـير آخـر سـوى أن يكـون تـوروك قـد أبلـغ الشرطـة عـن جورجـي.

لقـد حـدث كل شيء بسرعـة، ولـم تكـد تسـتوعب مـا حـدث. في هـذه اللحظـة يطـرق أحدهـم البـاب، فتقـول كوزمينـا بحنـق: مـاذا الآن؟

تذهـب إلى البـاب وتفتحـه، لتجـد تـوروك منكمشًـا عـلى نفسـه كجـرو يعلـم بأنـه فعـل مـا يغضـب صاحبـه. أو عـلى الأقـل هكـذا بـدا في عيـني كوزمينـا.

ماذا تريد؟ تقول كوزمينا بغضب.

- أريد أن أتحدث إليكِ قليلاً.

- تفضل. قل ما تريد بسرعة.

يدخل توروك.

- لقـد تسرعـت، ولكنـني فعلـت ذلـك حرصًـا عـلى حياتِـك، وكنـتُ حريصًـا جـدًا عـلى ألا يصيبـك أذى، وسـعيتُ بجـد إلى أن يطلقـوا سراحـك.

تفكـر كوزمينـا في نفسـها.. لربمـا كان جورجـي محقًـا، فلـو كان تـوروك يحـب جورجـي حقًـا لمـا قـام بإبـلاغ الشرطـة، ولجـاء بنفسـه كي يتحـدث إليـه مـن صديـق إلى صديـق.

- أنتَ لا تحب جورجي حقًا.

تقول كوزمينا.

يقـول تـوروك مدافعًـا عـن موقفـه: جورجـي بحاجـة إلى مسـاعدة مـن محترفـين؛ هـو مصـاب باضطـراب عقـلي. وفعـلي هـذا كان مـن مصلحتـه.

- إن مصلحتـه تكمـن في أن تعطيـه فرصـة كافيـة، إنهـا تكمـن في أن تسـتمع إليـه.

- أملك كل الوقت الآن كي استمع إليه في أمان.

- في أمان؟ أكنتَ خائفًا من صديقك؟

- لقد قام صديقي بقتل أخيه، هل تعتقدين بأنه سيتورع عن قتلي؟!

- ها أنا ذا أمامك، وليس يعرفني من قبل. هل قتلني؟ أؤكد لك بأنه لم يكن مصدرًا لتهديد حياتي على الإطلاق. لا أنكر بأني كنتُ خائفة بعض الشيء. لكن ذلك كان وليد الظروف وليس شأنه.

- أوه عزيزتي كوزمينا! لا بد من أنكِ تعانين من متلازمة ستوكهولم*.

- ماذا؟ أنا لستُ مضطربة.

ثم تضع كفيها في الهواء باتجاه توروك وكأنها توقف نفسها من الاندفاع قُدمًا في الكلام، ثم تقول: دكتور توروك، هل انتهيتَ من قول ما تريد؟

- أجل.

- إذن، أرجوك ارحل الآن.

يعتذر توروك منها بأدب ثم ينصرف بهدوء.

تفكّر كوزمينا للحظات بكل ما حدث، وتقرر أن تقوم بزيارة جورجي في اليوم التالي. بل وأن توكّل له محامياً جيدًا.

تقوم بإجراء مكالمة هاتفية لتأخذ موعدًا مع محامٍ شهير.. ثم تنطلق لمكتب المحامي. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، تذهب كوزمينا لزيارة جورجي.

وقد بدا المفتش كريمًا للغاية بالسماح لها بهذه الزيارة، فقد صدر عنه قرار سابق بمنع الزيارات بشكل مطلق، حتى أنه لم يسمح لوالدة جورجي بزيارته.. ولا بد أن له غاية باستثناء كوزمينا من المنع.

لم تبالِ كوزمينا بذلك، فعلى جميع الأحوال كان المفتش يثير

* متلازمة شهيرة يعاني منها ضحايا عمليات الاختطاف، فيبدؤون بإشهار تعاطفهم مع مختطفيهم، ومنهم من يعانقهم بعد إلقاء القبض عليهم.

اشمئزازها، فهو يمثّل كل ما تكره في جنس الذكور.. ولربما كان يشبه والدها إلى حد كبير.

لم يُرحّل جورجي إلى السجن المركزي بعد.. فالتحقيقات لم تنته، وحتى تنتهي التحقيقات يظل نزيلاً في زنزانة مركز الشرطة في وسط مدينة بوخارست. لذا تمت الزيارة في غرفة مكتب المفتش ذاته، وكانت تلك بادرة كريمة أخرى من السيد كوجوكارو. وقد أذِن كوجوكارو وبشكل مريب بفك قيد جورجي خلال الزيارة.

كانت غرفة المكتب تحتوي على مكتب المفتش وكرسيه المتواضع، بالإضافة إلى كرسيين للضيوف أو المتهمين، وطقم كنب يتكون من أريكة طويلة، من المرجح أن المفتش يستلقي عليها وقت الراحة، وأريكتين صغيرتين. وكان هناك مكتب آخر صغير في الزاوية، من الممكن أن الكاتب يستخدمه وقتما يُطلب منه ذلك وخلفه كرسي واحد.

جلست كوزمينا على أحد كرسيي ضيوف مكتب المفتش، وجلس جورجي على الآخر. وبدأت كوزمينا بالحديث: أنا آسفة.

- على ماذا؟

- أعتقد بأنني السبب في كل هذا.

يهز جورجي كتفيه بحركة تدل على اللا مبالاة، ثم يقول: هناك حقيقة مفادها أن طول حبل المشنقة يجب أن يتناسب مع وزن الضحية.. فإن كان الحبل أطول مما يجب فقد يقطع رأس الضحية، وإن كان أقصر فلن يقطع النخاع الشوكي بالرقبة، لذا فلن يسبب الموت المباشر، بل إن الضحية ستختنق وتموت موتًا بطيئًا مؤلمًا.. وكذلك الأمر مع لسان البشر، فهو يتناسب مع وزن خطاياه، فإن كان لسانه أطول مما يجب يقطع رأسه وإن كان أقصر يختنق صاحبه به. ولستُ نادمًا على أنني كشفتُ لكِ كل شيء. هناك سبب ما جعلني أراكِ في منامي طوال تلك الفترة الماضية، كان لا بد لي من أن أفشي لكِ كل شيء، وإلا اختنقتُ به. أما وقد تحدثتُ الآن فقد يسبب ذلك لي قطع

رقبـتي.. ولسـتُ آبـهُ لذلـك.

كان رد جورجـي صادمًـا لكوزمينـا. فتقـول: أنـتَ تفـترض أنـك ميـت في الحالتـين.

يمسح جورجي بيـده جبينـه متحسسًـا مكان جرحـه الجـاف قائلاً: أجـل، سأموت لا محالـة. ألـن نمـوت جميعًـا يومًـا مـا؟

- كيف ينسجم هذا مع كونك كنتَ ترتاح لرؤيتي في المنام؟

فيجيبهـا جورجـي: لربمـا أنقذتِـني مـن سـفك المزيـد مـن الدمـاء. مـن يـدري؟ لا عليـكِ، وأتمنى ألا تقدمـي عـلى زيـارتي مجـددًا.. وإن شـئتِ يومـاً أن تمـرّي عـلى وسـط المدينـة عليـكِ أن تمـرّي بنافـورة أونـيري؛ هـي خلابـة بالفعـل؛ بإمكانـكِ القـول بأنهـا مُريحـة كذلـك.

- ماذا تقول؟ لقد رتبتُ موعدًا مع محامٍ شهير.. وسأوكله لقضيتك.

فيقول جورجي وهو يقف: سيّان، لكنني أشكرك على بادرتكِ اللطيفة.

ويتوجـه إلى البـاب بينمـا تحـاول كوزمينـا أن توقفـه عبثًـا. فيطـرق عـلى البـاب منهيـاً الزيـارة.. ويرحـل تـاركًا كوزمينـا في صدمـة.

في المسـاء، كان كوجـوكارو جالسًـا عـلى مكتبـه وقـد رفـع قدميـه فـوق المكتـب، شـابكًا يديـه خلـف رأسـه الأصلـع الضخـم. يفكّـر في إسـتراتيجية يسـتخدمها في قضيـة بوشينسـكي.

هـو مصمـم كل التصميـم عـلى أن ينـال جورجـي عقابـه، هـو يعلـم أن شهادة تـوروك لـن تكـون كافيـة. فـلا يمكـن إثبـات جريمـة قتـل دون إثبـات هويـة الضحيـة. وعليـه فـإن هـذه الثغـرة العظيمـة تـؤرق كوجـوكارو.

لـم يكـن الحـوار الـذي دار بـين كوزمينـا وجورجـي في مكتبـه كافيًـا. كان لا بـد لـه مـن أن يجـد شـيئًا آخـر.

إذن، ليـس هنـاك حـل آخـر. يقـول كوجـوكارو في نفسـه. ثـم يقـول بصـوت عـالٍ: لنحـلّ مسـألة الجثـة تلـك الآن.

في صبـاح اليـوم التـالي، تـم اسـتدعاء جورجـي مـن زنزانتـه إلى غرفـة التحقيـق. وظـلّ في انتظـار المفتـش كمـا كان في المـرة الماضيـة، لكـن هـذه

مكتملـة لديـه الآن، وبذلـك أصبحـت الأدلـة تشـير بقـوة إلى كـون جورجي هـو المذنـب.

*****

٢١٠
٢١١
٢١٢

الفصل الثالث والعشرون
المحاكمة/ الجلسة الأولى

المحكمة الجنائية - بوخارست

• كان كوجوكارو قد نشر خبر إلقاء القبض على جورجي في كل مكان، وقد حرص على تصويره بالوحش الخطير الذي مثّل بجثة أخيه، وهو يشكّل خطرًا شديدًا على المجتمع، وعليه لا بد له من أن يصبح عبرة لمن يعتبر ومن لا يعتبر.

كانت نية كوجوكارو من وراء ذلك أن يجعل من جريمة جورجي قضية رأي عام.. وعليه يكون قد آلّب عليه المجتمع، فيصدر حكمًا عليه قبل حصول المحاكمة.. وفعلاً كان له ذلك وتحوّلت القضية لقضية رأي عام، وأي محلفين هؤلاء الذين قد يصدروا حكمًا مخففًا على مجرم كجورجي، مخالفين الرأي العام الذي أصدر بالفعل حكمه على جورجي في الشوارع التي خرجت تطالب بإعدامه؟ هي استحالة. نعم، إستراتيجية كوجوكارو كانت ناجحة للغاية.

وبدأت المحاكمة بالفعل، وألقى كوجوكارو مرافعة رائعة بصفته ممثل النيابة العامة، شارحًا بإسهاب تفاصيل الجريمة الشنعاء. محاولاً رسم الاشمئزاز على وجوه الحضور وخصوصًا المحلفين. وكان له ما أراد، فكانت ملامح القرف والاشمئزاز باديةٌ عليهم دون استثناء.

كانت إيلين والدة جورجي تحضر الجلسة، ووحده الله يعلم شعور تلك الأم الثكلى التي تحضر جلسة محاكمة ابنها الذي قتل أخاه.. فالقاتل ابنها والمقتول ابنها. فإلى أي صف عساها تنحاز؟ وإلى أي جهة قد يميل قلبها؟

هي لم تستطع على أي حال أن تترك بودي وحده، فاستأجرت جليسة أطفال تجلس معه إلى أن تعود، حيث إنه لم يكن ممكنًا أن تجلبه معها، حتى لا تتحول المحاكمة إلى عرض خاص من الكوميديا السوداء.

إلى جوارها كانت كوزمينا، وهي وحدها التي يبدو واضحًا عليها

الاستنكار الصريح لكلمات الادّعاء التي يلقيها كوجوكارو بقوة وعنف على مسامع الحضور.. كانت كل كلمة يتفوّه بها تشي بأن جورجي مذنب، مذنب خالص. لا يمكن إنكار ذلك.

وكان في الجلسة كذلك توروك، وإلى جواره تجلس ماريا، التي كانت قد صبغت شعرها باللون الأسود، ولم تبدُ عليهما أي ملامح تدل على تعاطفهما مع جورجي. وعلى صعيد آخر قد بدت عليهما علامات الودّ، وكأنهما قد استأنفا ما انقطع بينهما من ودّ قديم. ما أسرع ما يتبدّل القلب البشري إذا ما وجد بديلاً ملائمًا!

نكزت كوزمينا توروك من الخلف، فنظر إليها وتبادلا التحية، ثم حيّا إيلين، ثم ابتسم مرة أخرى إلى كوزمينا وخاطبها قائلاً: يحدث أنني قد بدأتُ لتوّي بحب اللون الأسود.

ووضع يده خلف ظهر ماريا.. ثم استدار ونظر إلى الأمام كما كان، لينهمك مجددًا في الحديث معها.

جاء دور المحامي الشهير بيتر بوبيسكو للدفاع عن جورجي، وقد نفى التهمة عن موكله، موضحًا أنه يمكن له تفنيد كل أدلة الادّعاء في سياق المحاكمة. يبدو الأمر بسيطًا جدًا حتى اللحظة.

يبدأ استجواب الشهود. والشاهد الأول: توروك.

يبدأ الادّعاء في طرح الأسئلة.

- هل تحدثت إليك السيدة كوزمينا بخصوص المتهم؟

- أجل، كثيرًا.

- وهل أخبرتك بأن المتهم أخبرها بلسانه بأنه قتل أخاه؟

هنا، يقف المحامي معترضًا، فيقول: إنه يلقّن الشاهد شهادته.

وقبل أن يجيب القاضي يتدارك المفتش فيقول أعتذر سيدي القاضي، إنه خطئي. ويسعل سعلة خفيفة ثم يردف: سأعيد صياغة سؤالي.

فيقول القاضي: تفضل.

فيجلس المحامي ثم يتابع كوجوكارو باستجواب الشاهد مرة أخرى:

أخبرنا ما الذي قالته لكَ السيدة كوزمينا عن السيد بوشينسكي بخصوص قضيتنا .

يتنحنح توروك، ثم يقول: هاتفتني، وكانت خائفة ومرتبكة.. وأخبرتني بأن السيد بوشينسكي قد زارها في غرفتها بالفندق وأنه اعترف لها بأنه قتل أخاه، بل إنه شرح لها بالتفاصيل أحداث الجريمة بكل بشاعتها وبكل برود، حتى أنه لم يتوقف عن تناول الفطور أثناء سرده لها أحداث الجريمة.

- أشكرك، ليس لديّ أسئلة أخرى.

وجاء دور الدفاع.

- ما علاقتك بالمتهم ؟

- أنا صديقه وصديق العائلة منذ بضع سنين.

- ألم تكن كذلك صديقًا حميمًا لصديقة المتهم ماريا؟

- أجل، كان ذلك قبل نحو خمس سنوات.

- حسنًا، دعني أفهم ذلك ببساطة.. كنتَ صديقًا حميمًا لماريا، ثم بعدها أصبحت ماريا صديقة حميمة لصديقك. أليس كذلك؟

يقف كوجوكارو معترضًا أنه ليس ثمة علاقة بين حياة الشاهد الشخصية والقضية. فيقول المحامي: أتمنى أن تسمح لي المحكمة بإكمال استجوابي حتى تتضح العلاقة.

فيقول القاضي: الاعتراض مرفوض؛ بإمكانك المتابعة.

فيقول السيد بوبيسكو: هل لكَ أن تجيب د. توروك؟

- أجل كان الأمر كما وصفت.

- ألم تشعر بالانزعاج، خصوصًا أنني لم أتمكن من ألا ألحظ بأنكما أنتَ وماريا تبدوان على وفاق اليوم وتجلسان إلى جوار بعضيكما البعض، كما أنني شعرتُ ببعض الودّ. ألستُ على حق؟

يبتسم توروك، ثم يجيب: إن علاقتي بماريا تتخطى حاجز الحميمية.. فنحن أصدقاء منذ أيام الجامعة. ومن الطبيعي أن أكون إلى جانبها في

ظل هذه المحنة.

كم هو لائق! يقول المحامي.

ثم يردف: أن تكون إلى جوار صديقتك الحميمة القديمة والتي هي صديقتك دائمًا، في ظل الظروف الصعبة على صديقها الحميم الحالي، والذي هو صديقك كذلك.

ثم يستأنف: د. توروك، أنتَ أستاذ في علم النفس وتقوم بإلقاء المحاضرات في جامعة بوخارست التي عمل بها موكلي، كما تعمل بها ماريا الآن، أليس كذلك؟

- أجل.

- ألا توافقني أن علم النفس لا يمكن أن ينكر أنك قد شعرت بالانزعاج من علاقة ماريا بموكلي، وأن هناك هامشًا لا بأس به من تضارب المصالح هنا؟ فها أنتَ تأتي لتشهد بأن موكلي قتل أخاه بينما تواسي صديقته الحميمة، والتي ربما ما زلت تكنّ لها بعض المشاعر؟

كان من الواضح أن أسئلة المحامي تزعج توروك، الذي كانت قطرات العرق تبلل جبينه، مما اضطره أن يخرج منديلاً ويمسحها ثم قال: إن علاقتي بماريا ليس لها شأن بشهادتي، فقد كنتُ متعاونًا تمامًا مع السيدة كوزمينا عندما كانت تتحرى عن جورجي. وما كنتُ لأشهد شهادتي هذه لولا أن شعرتُ بأن حياة كوزمينا قد تكون في خطر.

يقول المحامي: صحيح، لا علاقة لها. د. توروك سؤال مهني.. لو أنك تنظر إلى هذه الحادثة كطرف ثالث، فهل كنتَ ستعتقد مثلي بأنه ثمة تضارب للمصالح هنا؟

وصل الحرج إلى قمته مع توروك، فهو يعلم بأنه يستطيع أن يقول لا، لكنه يعلم كذلك أن إنكاره كذب، ويستطيع المحامي الماكر -الذي ينظر إليه مبتسمًا وهو يعرف تمامًا أنه قد حشر توروك في ركن لن يتمكن من الخروج منه- أن يجلب مختصًا آخر فيشهد ويثبت كذب كلامه.

يقول توروك بصوت مرتجّ: أجل.

فيقول المحامي: عفوًا! لم أسمع.. ماذا قلتَ؟

فيعيد توروك كلامه مغتاظًا وهو يشدّ على أسنانه: أجل، كنتُ لأعتقد ذلك.

فيبتسم السيد بيتر ويقول: وأنا كذلك. أشكرك لمهنيتك د. توروك. ليس لديّ أسئلة أخرى.

كان جورجي ينظر تارةً إلى وجه توروك ثم إلى ماريا، دون أن تبدو على وجهه أي ملامح تدل على شيء ما ذي دلالة.. في الحقيقة كان يفكّر إذا ما كان قد عادا إلى بعضيهما البعض، ثم بدأ يفكّر فيما كان سبب اهتمامه بها على أي حال.

ألا نشعر أحيانًا بأن الفرد المرتبط مثير أكثر منه لو كان متوفرًا؟ إنها الرغبة في الحصول على ما لا نملك أو ما لا نقدر أن نملك.. هي ما تزيد ألق الفرد المرتبط في أعيننا. ثم ألا يحدث بأن يكون شريك الصديق الأقرب هو الأكثر إغراءً؟ أهي الغيرة والحسد؟ فما الذي يجعلني مختلفًا عن صلاح إذن؟ لربما كنتُ لا أختلف عنه كثيرًا.. أو لعلي لم أتمادَ مثله لأنني لم أملك قلباً كقلبه.. لستُ أدري شيئًا.

اغتاظ كوجوكارو للغاية مما حدث.. فقرر أن يترك أمر الشهود تمامًا وينتقل إلى الأدلة.

- هذا المسدس المستخدم في الجريمة، وهذا تقرير مختبرات البحث الجنائي الذي يؤكد أن هذا السلاح هو المستخدم في الجريمة.. وقد وجدناه في بيت المتهم.

يمرر السلاح أمام المحلفين، ثم يضع أمامهم تقرير المباحث الجنائية، ويقول: إنه ليس ثمة شك بأن السيد بوشينسكي استخدم هذا السلاح في ارتكاب الجريمة.

لم يتحدّث كوجوكارو عن الجثة، بداعي أنها قد أصبحت أمرًا مسلمًا به كونها تخصّ صلاح.

حـاول السـيد بوبيسـكو الطعـن في صحـة دليـل المسـدّس، لكنـه لـم ينجـح. وحـاول أن يثبـت استحالة حـدوث فحـص الـDNA لجثـة متفحمـة، لكـن كوجـوكارو كان يتوقـع أمـرًا كهـذا، لـذا فقـد حـرص عـلى أن يضمّـن فقـرة في تقريـر الطبيـب الشرعـي تثبـت وجـود بعـض الكتـل مـن دمـاغ الجثـة وُجـدت سـليمة، بعيـدًا عـن بقيـة الجثـة، رغـم أن هـذا محـض كـذب وتزويـر. بـدا أن المسـمار الأول قـد دُقّ في نعـش جورجـي.

كان جورجـي يسـتمع إلى كل مـا يـدور حولـه وكأنهـم يتحدثـون عـن شيء آخـر. ينظـر إلى أمـه تـارةً فـيرقّ قلبـه عـلى حالهـا.. ثـم ينظـر إلى ماريـا، فتـكاد عينـاه تدمعـان.. ثـم إلى تـوروك فيبتسـم.. ثـم إلى كوزمينـا الـتي تحـاول جاهـدةً أن تنقـذ حياتـه.. وأي حيـاة عسـاها تلـك؟ تلـك الحيـاة الماديـة تمامًـا.. والـتي قـد يتحـوّل فيهـا اليـوم إلى مـا حاربـه بقتلـه لأخيـه. أيـن الفضيلـة في أن تمتنـع عـن ارتـكاب الـشر لأنـك لا تقـدر عليـه؟ وهـل سـأتمكن مـن ألا أرتكـب الـشر اليـوم بعـد أن غـدوتُ قـادرًا عـلى فعلـه؟ إن كان صـلاح هـو الـشر فـأي خطيئـة تكمـن في قتلـه؟ ولكـن القتـل بذاتـه خطيئـة!

- لقد قتلتُ صلاح.

تتوجـه أنظـار الجميـع إليـه.. ثـم تتجمّـد.. ففكّـر جورجـي: هـل قلـتُ ذلـك بصـوت عـالٍ لتـوّي؟ لكنـه يسـتدرك الأمـر مـن نظراتهـم أنـه أجـل قالهـا.

كان وجـه كوجـوكارو متهلـلاً، وقـد وقـف سـائلاً القـاضي أن يثبـت مقولـة جورجـي.. بينمـا كان المحامـي يقـف حائـرًا لوهلـة.. ثـم يهـبّ كالذئـب إلى القـاضي يحـاوره.

لـم يفهـم جورجـي لـمَ لا يتحـدث إليـه أحـد؟ أليـس هـو محـور كل هـذا؟ وينظـر إلى أمـه الـتي كانـت تبـكي، وقـد شـعر بالنـدم عـلى كونـه السـبب. لـم يطـق أن يسـتمر في النظـر إليـه، فحوّلهـا إلى ماريـا الـتي كانـت تبـكي هـي الأخـرى، إنمـا في أحضـان تـوروك، الـذي كان يبـدو مُرحّبًـا بهـا في

أحضانه.

انصرف جورجي بنظره إلى كوزمينا، التي كانت عيناها تمتلآن بالدموع، التي لم تبدأ بالسيلان بعد.. بدت له دموعها تلك غالية للغاية.. شعر بالأسى، بالحرج، بالخسارة. أجل، بالخسارة. فقد جاءت في حياته متأخرةً جدًا.. جدًا.

كان لا بد للسيد بيتر اللعب بآخر بطاقة يملكها.. فطالب بأن يستدعى جورجي إلى المنصة للاستجواب في الجلسة القادمة. وبعد أن رُفعت الجلسة اقترب المحامي من كوزمينا وهمس لها: لا بد لنا من إقناع جورجي بأن يصعد إلى المنصة فيتم استجوابه؛ إنها فرصتنا الوحيدة.

فتسأله كوزمينا فيمَ يفكّر، فيرد عليها بأنه سيتمكن من إظهار جورجي في مظهر المختل، المضطرب عقليًا، وعليه ترجّح حجته في عدم مسؤوليته العقلية عن تصرفاته.

فأومأت كوزمينا رغم عدم تفضيلها لمثل هذه المنهجية في الدفاع.. لكنها تدرك وتتفهم أنها فرصة جورجي الوحيدة.

تطلب كوزمينا زيارة جورجي، وتتم الموافقة عليها، لكنها تفاجأ برفض جورجي للزيارة. بل ورفضه للزيارة من أي أحد.. حتى محاميه ذاته.

في الواقع، تركت الجلسة الأولى أثرًا سيئًا في نفس جورجي. وآثر البقاء وحيدًا للتفكير على أن يتحدث إلى أي أحد، حتى لو دفع حياته ثمنًا لذلك. وأي حياة بائسة تلك على أي حال؟!

*****

٢٢٠
٢٢١
٢٢٢

الفصل الرابع والعشرون
المحاكمة/ الجلسة الثانية

المحكمة الجنائية - بوخارست

كانت إستراتيجية الدفاع الآن ترتكز على مدى مسؤولية جورجي عن أفعاله، مستفيدًا مما قدمته كوزمينا من أبحاث وأقوال علماء قد تدعم زعمه ذاك.

بعد مرافعة المحامي المُحنّك، بدا أن الشك المعقول قد غزا فؤاد معظم الحضور والمحلفين، الذين قد يتأثرون بكلمات تبدو عليها صبغة علمية، إلى أن يجدوا كلمات علمية أخرى تعارضها، وعندها يرجع كل فرد إلى الأحكام المسبقة التي كانت لديه.

لم يكن صعبًا على كوجوكارو أن يتوقّع تلك المرافعة العظيمة للمحامي المبهر، لذا كان مستعدًا تمامًا، فحضّر لائحة بأسماء بعض العلماء لطلبهم للشهادة في هذا الخصوص، وكان البروفيسور أمانار أحدهم.

لم يتوانَ البروفيسور أمانار في تفنيد كل ذلك.. مستغلاً تلك الشهادات المتراكمة في سيرته الذاتية، التي إنما تدل على ثِقَل وزن رأيه، المتمثل في كون المتهم مسؤول كل المسؤولية عن أفعاله، وأن تلك الرغبة والإصرار على قتل أخيه كانت موجودة على الأرجح قبل زراعة القلب، وأن زراعة القلب لا شأن لها في ذلك.

وحان دور استدعاء جورجي للاستجواب على المنصة. فتحرك الحرس لتقديم جورجي إلى المنصة، وما هي إلا لحظات حتى كان جورجي يجلس إلى المنصة.

يبدأ المحامي كلامه: هل لك أن تصف طبيعة علاقة صلاح بالعائلة؟

- كان صلاح مثالاً للولد البار.

كانت إجابة جورجي صدمة للجميع. بينما تركت بسمة على وجه كوجوكارو، الذي بدا وكأنه يرى النصر في الأفق.

يتنحنح المحامي، ثم يقول: حسنًا، هل صحيح ما هو متداول عنه بأنه ينتمي للمافيا؟

يقف المساعد للاعتراض بداعي أن المحامي يلقّن المتهم بالشهادة، فيجذبه كوجوكارو الذي يبدو مطمئنًا للمحاكمة، ويرغب في الاستمتاع بالعرض. فيجلس المساعد ويسمح القاضي لجورجي بالإجابة، يجيب جورجي: لا، ليس صحيحًا.

يقول المحامي بحنق: ألم يكن يعامل زوجته بقسوة لدرجة أنها فرّت من بيته هاربة؟ وألم يتعرّض لوالدتك بالضرب المبرح قبيل حادثة مقتله المزعومة بقليل؟

فيجيب جورجي: صلاح لم يتزوج على الإطلاق. أما عن أمي، فقد تعرّضت لحادث.

فيرد المحامي وهو يشير إلى أوراق في يده: ماذا عن شهادة زواجه هذه؟

ودون أن ينظر بوشينسكي إليها يقول: لا أعرف عنها شيئًا.

فيقول المحامي: ألا تريد النظر إليها؟

فينظر بوشينسكي إلى عيني المحامي.. ثم يلقي نظرة سريعة على الورقة ويكرر بسرعة: لا أعرف عنها شيئًا.

فيسأل المحامي سؤاله الأخير: إذن لماذا قتلته بحق الجحيم؟

- ذلك لأنه كان يتوجب على فلاد الثالث أن يموت! كان لزامًا لأحد ما من ضحاياه أن يقوم من قبره كما دراكولا ذاته، فيقوم بقتله بأن يدقّ وتدًا خشبيًا في قلبه خشية أن يقوم من جديد. فهو دائمًا ما يفعل ذلك.

وأخيرًا بدأ في الغناء.

يقول المحامي في نفسه: هيا عزيزي.. أطلق العنان لجنونك!

فيردف جورجي: قتلته، لأنني كنتُ أرى نفسي أقتله آلاف المرات في منامي. لكل هرة قطع ذنبها مرة، لكل كلب صبّ عليه البنزين ثم



ألقي عليه عود ثقاب مرة، ولكل صفعة له على وجهي مرة، ولكل ركلة له مرة.. ولكل جلدة له على جسد أمي مرتين. نعم، قمتُ بقتله.. وأنا سعيد لأنني فعلت ذلك. وقد استمتعتُ بمشاهدة شعلة الشر في عينيه وهي تنطفئ.. ولقد حرصتُ على أن أزرع في صدره رصاصة لكل حادثة مؤلمة خلّفها في عقلي.. مائة وست وتسعون رصاصة! كنتُ في بادئ الأمر أحاول إخفاء هويتي كقاتل له، إلى أن التقيتُ تلك المرأة الجالسة هناك.

ويشير بيديه المكبلتين إلى كوزمينا التي تدمع: عندها أيقنتُ بأن الحياة لا قيمة لها. إن الحياة التي نعيشها بعيدين عن امرأة مثلها لا قيمة لها. وعليه، يتوجب عليّ أن أتحمل المسؤولية تجاه عائلتي، وتجاه المجتمع بقتل أخي.

ثم يتوجه مخاطبًا أمه: أمي.. سامحيني، لقد حرمتُكِ ابنًا.. وقتلتُ لكِ الآخر.. وتركتكِ بلا شيء، بلا شيء.

كانت والدته جالسة هناك. يداها ترتجفان، لم تنطق بشيء، فدمعة أم مكلومة أبلغ من ألف كلمة.

يقول المحامي: ليس لديّ أي أسئلة إضافية.

فيقف كوجوكارو متجهم الوجه، ويتقدم لسؤال جورجي: هل لك أن تصف لنا شعورك وأنت تقوم بالجريمة؟

- لقد كنتُ هادئًا، لم أرتبك.. وكأنني سفاح محترف وليست أول مرة أقتل فيها. لم أشعر بالندم، لم أشعر بالشفقة عليه.. ولم أشعر بأي مشاعر رحمة تجاهه.. وبكل تأكيد لم أفقد عقلي. ولو أن الأمر بيدي لرجعتُ مرة أخرى وقتلته مرات إضافية.

فيقول كوجوكارو: إذن، أنت لم تفقد عقلك؟

يجيب جورجي: بكل تأكيد. ثم يردف: ومستعد لفعلها مرة أخرى.

فيبتسم كوجوكارو، فيتحرك ذلك الشارب العظيم كاشفًا عن أسنانه البيضاء الناصعة. ويقول: ليس لديّ أسئلة إضافية.

يقول المحامي هامسًا: لقد حكم على نفسه بالإعدام لتوّه.

ثم يردف بعد أن استعاد القليل من كبريائه: لا، لم ينتهِ الأمر بعد.

وبينما يقف جورجي للعودة مكانه وراء القضبان، حتى تبدو ماريا متأثرة لدرجة أن يقوم توروك باحتضانها للتخفيف عنها للمرة الثانية، وقد لاحظ جورجي هذه الحركة فابتسم.

بينما استعادت كوزمينا قوتها، رغم أنها لم تفهم أبدًا لمَ فعل جورجي ما فعله لتوّه.

لم يكن ثمة اختلاف بين المحلّفين على كونه مذنبًا، لكنهم اختلفوا فيما إن كان يستحق الإعدام أم الحكم المؤبد. وكان الحكم المؤبد بالنسبة لكوزمينا بمثابة البراءة، لكونه حكمًا مخففًا، وهذا يدل على تعاطف المحلفين مع جورجي، وهو أمر مستبعد، بما أن الذين يميلون للمؤبد أقلية بين المحلفين.

ولم يتبقَ الآن سوى المرافعة الختامية ثم تُرفَع الجلسة حتى يتوصل المحلفون لقرار.

*****

٢٢٧

٢٢٨

الفصل الخامس والعشرون
المحاكمة/ المرافعة الختامية

المحكمة الجنائية - بوخارست

كما هي العادة، يبدأ الادّعاء.

تقدّم كوجوكارو بخطى واثقة، ثم بدأ خطابه الموجز، والذي لم يعتقد بأنه بحاجة إلى أن يطول، فيقول: نحن اليوم أمام جريمة تقشعر لها الأبدان. إنها حكاية قابيل وهابيل من جديد أيها السيدات والسادة. لكنه قابيل أشد قسوة وأكثر بشاعة.. هذه صور للجثة.

ويعرض الصور للمحلفين، ويقول: انظروا كم هي متفحمة! مهترئة! ممزقة! إنها أشبه ما تكون بالغائط. وقد اعترف المتهم بأنه أفرغ فيه مائة وست وتسعين رصاصة. أي كائن بشري هذا الذي يفرغ في أخيه هذا الكم من الحقد والكراهية؟! أي مثال نعطيه للناس إن سمحنا بالتهاون مع هذا النوع من الجرائم؟! إننا نعيش في مجتمع لا بد فيه من سيادة القانون، حتى وإن فرضنا أن الضحية كان قد ظلم المتهم فإنه من الواجب علينا أن نحتكم إلى القانون، وإلا فإن مجتمعنا البشري سيتحول إلى غابة، يقتص فيها الناس بعضهم من بعض ويذهب النظام والقانون إلى الجحيم. هل يمكننا التساؤل عن مدى مسؤولية جورجي في التحكم بسلوكه؟ أويمكننا حقًا طرح مثل هذا السؤال لمجرد تغيير قلب؟ إنه قلب يا سادة، وليس عقلاً. إنها مضخة للدم ليس إلا.. إن الأمر كما أشار البروفيسور أمانار لا يستحق النظر فيه. كما أن السيد بوشينسكي قد أكّد لكم بنفسه أنه سليم العقل.. وهذا كل ما يهمنا. إنني من هنا أسألكم أن تحكّموا ضمائركم وتحموا شوارعنا من هذا المجرم وأمثاله. إنكم اليوم لا تحاكمون جورجي بوشينسكي، إنكم تحاكمون ما يمثله من وحشية وحيوانية.. والتي من المفترض بأن الإنسان المتحضّر قد تخلّص منها منذ زمن بعيد جدًا. إنني أتوسّل إليكم ألا تُعيدوا إلينا الإنسان البدائي فينا.

ثم يسعل سعلة خفيفة.

عـاد كوجـوكارو مزهـوًا بالعـرض الخطـابي الرائـع الـذي قدّمـه، والـذي رأى أثـره في وجـوه المحلفـين بشـكل إيجـابي بالنسـبة إليـه.

وقف المحامي، ثم تقدّم:

- علينـا جميعًـا أن نسـأل أنفسـنا عـن الالـتزام الأخـلاقي أمـام الإنسـانية، في جـواز الحكـم في أن السـيد بوشينسـكي مسـؤول تمامًـا عـن تصرفاتـه وسـلوكه، وقـد دلّ كلام الشـهود عـلى وجـود اختـلاف صريـح في سـلوكه بعـد زراعـة القلـب، فهـا هـو يتخـلى عـن حبيبتـه لسـنتين متتاليتـين.. وهـا هـو يتوقـف عـن الشـغف بالكيميـاء الـتي كانـت العمـود الفقـري لحياتـه. وهـو الـذي لـم يطـق يومًـا مشـهد الـدم، نجـده يقتـل أخـاه بتلـك الطريقـة الوحشـية. هـل مـن الممكـن أن نفـترض لـو أن السـيد بوشينسـكي لـم يخضـع لتلـك الجراحـة، كان مـن الممكـن أن يكـون لـه نفـس السـلوك الـذي كان منـه حقًـا؟ أجـل أيهـا السـيدات والسـادة، هنـاك بعـض المـؤشرات العلميـة الـتي تشـير إلى إمكانيـة حـدوث مثـل هـذا التغيـير في السـلوك، وتوجـد هنـا الدكتـورة كوزمينـا دالكا، والـتي قدمـت أبحاثًـا تؤكـد تلـك الإمكانيـة، وقـد أقـترح لكـم أن توفـروا لهـا مـادة دراسـية قـد تكـون مهمـة جـدًا للبشريـة، أن تمكنوهـا مـن إخضـاع السـيد بوشينسـكي للدراسـة. فقـد تصـل إلى نتائـج تذهلنـا كلنـا. كمـا أن تأكيـده لسـلامة عقلـه لا يعـني شـيئًا.. هـل سـبق لكـم أن رأيتـم مجنونًـا يقـرّ بكونـه مجنونًـا؟ إنـه فعـل لربمـا يشـترك فيـه كل المجانـين. نعـم، أوافـق زميـلي في الادّعـاء العـام في كونهـا حكايـة قابيـل وهابيـل. لكنهـا صـورة مُحسّـنة عـن النسـخة الـتي نعرفهـا. فهـا هـو صـلاح الـذي يشـعر بالغـيرة الشـديدة مـن جورجـي ويسـومه وذويـه سـوء العـذاب.. فمـا الـذي ننتظـره مـن جورجـي أن يفعـل؟ أن ينتظـر ليكـون هـو الضحيـة؟! أقـدّم لكـم هـذه الشـهادات لكـون صـلاح مُشـتبه بـه في العديـد مـن عمليـات العنـف، وقـد وثّقتهـا المحكمـة. نعـم، لـم ينجـح الادّعـاء في محاكمـة صـلاح، وذلـك لأن مـوكلي قـام بالمهمـة عنـا نحـن المجتمـع وحقـق العدالـة. هـلا نظرتـم إلى

السيدة الجالسة هناك؟ إيلين بوشينسكي هي والدة المتهم والضحية. وأود أن أسألكم ألا تثكلوا قلب هذه الأم مرتين. هذه الأم التي سجّلت تنازلاً عن الحق الشخصي لكون المتهم قتل ابنها. رغم كل ما قاله الادّعاء من وحشية الجريمة.. لكنها أسقطت الحق الشخصي. ويبقى لديكم الحكم في الحق العام. والذي أسألكم فيه الرأفة.

أنهى المحامي مرافعته، ورُفِعَت الجلسة، إلى أن يصل المحلفون لقرار.

ولم يطُل الأمر حتى وصل الخبر بأن المحلفين قد توصلوا بالفعل إلى قرار. وقد كان كما هو متوقع: إنه مذنب، ولكن المفاجأة كانت أن الحكم أنه يستحق حكمًا نافذًا بالإعدام شنقًا.

وقف كوجوكارو مبتسمًا، ووقف معه المساعد كظله.. فخاطبه كوجوكارو بينما كان يهمّ بالمغادرة: تعلّم يا ديمترسكو.. عليكَ دائمًا بأن تثق بما هو هنا.

ويشير إلى مكان القلب في صدره.

- ثم تُؤوِّل ما تراه من حولك ليتفق معه.. إن الحقيقة بتفاصيلها لا تهم.. ما يهمّ هو ما تعرفه أنتَ بقلبك.

يبتسم المساعد، ثم يقول: هل تسمح لي بسؤال أيها المفتش؟

- أجل، بكل سرور عزيزي.

- لمَ كنتَ مصرًا كل هذا الإصرار على أن يلاقي بوشينسكي مثل هذا الحكم، وأنتَ تعلم أنه قد قدّم لنا معروفًا بقتله أخيه؟ لقد كنا نحاول كثيرًا الإيقاع بصلاح، لكننا لم نستطع. فلمَ كل هذا الغضب من جورجي؟

فيجيبه كوجوكارو ضاحكًا: أوه يا عزيزي ديمترسكو! أمامك الكثير كي تتعلمه.. إن أكبر غلطة يرتكبها شخص مثل جورجي هي أن يطبق القانون بنفسه! من يعتقد نفسه؟ ها؟ إنه مجرد حشرة صغيرة على شجرة عملاقة.. إن فتحتُ المجال للحشرات الصغيرة بأن تفلت من

العقاب فلن تبقى هناك حياة في نظام بيئي مغلق، كالشجرة التي نعيش عليها، بل ستكون هناك الفوضى يا عزيزي. إن لم أتمكن من الإمساك بالحشرات الكبيرة، هذا لا يعني أنني لن أسحق حشرة صغيرة تمر من تحت قبضتي. نحن بهذا نطبق القانون ونحفظ النظام.. ونحافظ على نظامنا البيئي مغلق الإحكام هذا.

ثم يبتسم إبتسامة عريضة ويضع يده على ظهر مساعده مطوّقًا إياه ويرحلان معًا.

يجلس المحامي إلى جوار كوزمينا -التي تحتضن إيلين وهما في حالة من الصدمة- للحظات قائلاً بأنه آسف، وأنه سيعمد إلى الاستئناف.

فتقول كوزمينا: أجل، سنفعل.

فينصرف المحامي.. وكما يقولون، ذيله بين قدميه.

*****

٢٢٣
٢٢٤

الفصل السادس والعشرون
الزنزانة

السجن المركزي - بوخارست

هل انتهت الحكاية هكذا؟

يخاطب جورجي نفسه وهو قابعٌ في زنزانته الباردة الرطبة.

هل نلتُ ما أستحق؟ أوكنتُ لأصل إلى هذه النتيجة لو كان قلبي في مكانه الطبيعي في صدري؟ إن قلبي قد تعفّن، وعلى الأرجح أن يكون قد استحال ترابًا الآن. وعمّا قريب سأكون إلى جواره.. وسأرجع إلى ما بدأ منه كل شيء قبل مليارات السنين. من العدم وإلى العدم.

ويا ترى ماذا عساني سألقى بعد الموت؟ هل ثمة شيء ما هناك بانتظاري؟

إنه على الأرجح لا شيء. ستُكسر عنقي بعد أيام، ثم أدفن. وبعدها سأبدأ بالتحلل، وما هي إلا أيام حتى أنتفخ بسبب الغازات التي ستتراكم من تحلل أعضائي الداخلية، وقلبي.. قلبي الغريب عني كذلك سيتحلل معي. قلب الملكة ماريا فويتشيتا الذي عاش ستمائة عام في معجزة ليس لها مثيل.

مهلاً.. ما الذي يمنعها من الحدوث قبل وبعد ماريا؟ عجبًا! لمَ لم أفكر في ذلك من قبل؟ لكن، لماذا حكموا عليّ بالإعدام؟ ألأنني قتلتُ أخي؟ ولكنه مجرم، ولم يجرؤ أحدٌ على محاكمته! فلماذا أنا؟

ثم بدأ يفكّر في رومانيا، بلاده. وكيف أنها يومًا ما ثارت على المجرم تشاوتشسكو.. وأعدمته على الملأ.. ثم لم يلبث النظام الجديد الذي لم يكن سوى حلفاء تشاوتشسكو بالأمس وشركائه في جرائمه، في قيادة البلاد شيئًا فشيئًا.. وكيف أنهم زجّوا الثوار في السجون، ولم يُحَاكَم حتى اليوم أي جندي من النظام الشيوعي على جرائم ارتكبها في حق المتظاهرين.. إنهم لا يحاكمونني كجورجي. أجل.

هم لم يحكموا عليّ كجورجي، بل حكموا على ما أمثله. إنني بالنسبة

إليهم الثورة التي يجب أن تـوأد قبـل أن تنتـشر كالمرض المُعـدِي. أجـل، أجـل.. هـو كذلـك بالضبط.

يمـضي جورجـي في زنزانتـه جيئـة وذهابًـا، وقـد يبـدو للناظـر إليـه كمـن فقـد عقلـه.

حسنًا، مـا يهـم الآن هـو هـل انتهـى الأمر بهـذه الطريقـة؟ لا، لا يمكـن. لا بـد لي مـن أن أملـك الكلمـة الأخـيرة. إنـي بقلـبي هـذا لسـتُ مـن ينتظر مصيره هكـذا دون أن يفعـل شيئًا.. لا أحـد يتحكـم بمصيري بعـد الآن.

إن قلـبي الجديـد هـذا بمثابـة ثقـب الجـدار الخـاص بجحيـم باربـوس*، وبينمـا كان باربـوس يسـترق النظـر مـن الثقـب فـيرى النـاس عـلى حقيقتهـا.. كنـتُ أسـترق النظـر إلى الثقـب الـذي هـو قلـبي، فأطّلـع عـلى ذاكـرة سـواي.. وأكتشـف حقيقـة سـواي، تـوروك صديقـي العزيـز المتحضر. ماريـا المتمـردة الشـهية. وكان اكتشـافي المفاجـأة كوزمينـا.. كانـت مفاجـأة جميلـة بحـق. كمـا أنـي اكتشـفتُ حقيقـة إلهـي الـذي ظللـتُ عليـه عاكفًـا طـوال تلـك السـنين، علمـي.. إنـه الوهـم.. وهـم أن يكـون الإنسـان متحكمـاً في نفسـه وفي الطبيعـة وفي الكـون.

إنـه كمـا نقـول دومًـا أقـرب شيء نفعلـه ويمكـن لـه أن يكـون صحيحًـا.. نحـن نعلـم تمامًـا أن الأوكسـجين يتفاعـل مـع الهيدروجـين في الظـروف المناسـبة. لكـن مـا الـذي جعـل فيهمـا تلـك القابليـة للتفاعـل؟ نحـن اكتشـفنا قانـون التفاعـل.. لكننـا لـم نخترعـه. لربمـا كان القتـل جـزيء أوكسـجين.. بينمـا كان قلـبي الأصلي جـزيء نيتروجـين خامـلاً.. لـذا مهمـا فعـل أخـي بي مـا كان للأوكسـجين أن يتفاعـل مـع النيتروجـين، مهمـا حلـم بذلـك عقـلي. لكـن مـا أن أبـدل النيتروجـين بالهيدروجـين.. يكفـي أن تشـعل عـودًا مـن الثقـاب حـتى تحـدث انفجـار، ثـم يصبـح لدينـا مـاء. صحيـحٌ أن النيتروجـين ليـس خامـلاً تمامًـا، فهـو يتفاعـل مـع مـواد أخـرى، لكـن ليـس

---

* رواية الجحيم للروائي الفرنسي هنري باربوس 1873 - 1935 الصادرة عام 1918.

مـع الأوكسـجين، حـتى في تفاعـل الأوكسـجين مـع الهيدروجـين.. لا بـد مـن وجـود محفّـز، وهـو إشـعال عـود الثقـاب. وهـي في حالـتي الـضرب المُبرح لأمي عـلى يـد صـلاح. أجـل، قـد يكـون الأمـر هكـذا، أن القلـوب تتفاعـل مـع الخطايا كالتفاعـلات بـين المـواد الكيميائيـة، وأن بعـض القلـوب تميـل للتفاعـل مـع نوعيـة معينـة مـن الخطايـا أكـثر، لمـاذا؟ لأنهـا خلقـت كذلـك، تميـل لذلـك الفعـل، وهـي الأقـدر عـلى فعلـه عمّـن سـواها. لكـن، كل بـني البـشر يقـدرون عـلى القتـل إن وضعـوا في ظـروف معينـة كالحـروب مثـلاً.. وكذلـك الأمـر تمامـاً مـع العنـاصر الكيميائيـة.. ففـي ظـروف حـرارة كمـا داخـل النجـوم، تحـدث تفاعـلات لا يمكـن لهـا أن تتـم في الأرض. أيـن الإرادة الحـرة إذن؟ الإرادة الحـرة تكمـن في سـعيي لقتلـه.. أنـا لسـتُ ذرة هيدروجـين حقًّـا، بـل كائـن حـي يسـعى ويتحـرك. وقتلـتُ أخـي عـن سـبق إصرار وترصـد.. وبكامـل إرادتي، ولـم أكـن دون حـول ولا قـوة.

مـاذا أفـادني علمـي مـع صـلاح؟ لا شيء. مـا نفعـني هـو غريـزة بدائيـة كالقتـل. لا فـرق بيـني وبـين حيـوان في غابـة. إن العلـم في حالـة كهـذه ليـس سـوى وهـم يعوّضنـا عـن الشـعور الهائـل بالعجـز أمـام هـذه الدنيـا الهائلـة. بينمـا نحـن لسـنا بـشيء، ولسـنا عـلى شيء.

أما الاكتشاف الأهم، أني اكتشفتُ حقيقة نفسي.

مـاذا لـو كان ثمـة شيء مـا في انتظـاري بعـد المـوت؟ مـاذا لـو كان ثمـة إلـه؟ هـل سـأكون في نظـره طيبًـا، أم أني أسـوأ مـن صـلاح؟

لكـن صـلاح لـه ضحايـا كُـثر -عـلى الأرجـح- بينمـا أنـا لـم أقتـل أحـدًا سـواه. نعـم، كنـتُ وحشـيًا. لكنـني قدمـتُ لـه مـا كان يزرعـه طـوال تلـك السـنين. إن البـذور الـتي كان يرميهـا في تربـة صـدري ظنًـا أنهـا لـن تُزهـر يومًـا قـد أزهـرت وأثمـرت، بعـد أن زرعـتْ في صـدري قلبًـا جديـدًا، قلبًـا جريئًـا، قـادرًا عـلى بعـث الحيـاة في تلـك البـذور. لقـد أنبتـت البـذور لي يـدًا قـادرةً عـلى أن تحمـل مسدسًـا وتسـدد النـار إلى صـدر أخـي. إذن فقـد نـال صـلاح نتيجـة عملـه.. ولربمـا كنـتُ محظوظًـا بذلـك.

لا بد من أنني طيب في نظر الله إذن، لكنني لم أعبده يومًا. بل لم أؤمن بوجوده قط، لا أنكر أنني تساورني الشكوك الآن، لكنني لستُ أملك عنه يقينًا. وأين اليقين؟ في أي شيء يكون؟ ألم أكن متيقنًا في علمي؟ ألم يخذلني؟ وتلك العلامة في صدري تشهد على ذلك. بل إن كل ما أنا فيه اليوم يشهد على ذلك. ألا سحقًا لكل شيء! لِمَ لم يوقفه إذن؟ لِمَ كنتَ تراقب كل ما يفعل ونسكت عنه يا الله؟

ياه! كم أنا أحمق! إله سكت عن البشرية وهم يصلبون ابنه، أوكان لينطق إذا ما أراد أخي أن يفعل بي ما يشاء؟!

ياه! كم أنتَ قاسٍ يا رب! أوسترحمني؟ أيعقل أن يمتلئ قلبك بالرحمة لنا نحن البشر ونحن صلبنا ابنك؟ أيعقل أن تجمع بين السخط والرحمة في آن معًا داخل صدرك؟ ما تراك فاعل بي؟

أم أنك لستَ هناك وأنني لستُ أخاطب هنا أحدًا سوى نفسي البائسة؟ لربما كنتُ حقًا إله نفسي.

نحن أبدلناك بأي شيء آخر، أنفسنا أو العلم أو حتى الرأسمالية، أي شيء يستحق العبادة والطاعة سواك. ماذا تراك فاعل بي؟ ها؟

حسنًا، ليس ثمّة طريقة أخرى لمعرفة ذلك.

*****

الفصل السابع والعشرون

خاتمة

في صباح اليوم التالي، وُجِد جورجي مشنوقًا بملاءات السرير في زنزانته. ووصل الخبر إلى كوزمينا التي لم تصدق الأمر.

- انتحر؟ استحالة!

لكن الأمر مؤكد وليس من مجال للشك فيه، فليس لأحد مصلحة في قتل محكوم عليه بالإعدام.

كم هو غريب هذا الجورجي! بعد ذلك الخطاب الغريب في المحكمة يأتي على فعل كهذا؟! إنه لأمر غريب فعلاً.

ثم تفكر ببدايات سماعها باسمه وكيف بدأ الأمر بمجرد استفسار بسيط، إلى مغامرة لم تعِش مثلها في حياتها قط. لقد قدّم لها بوشينسكي نموذجًا مختلفًا عن الرجال.. على الأقل الرجل الذي صار إليه بعد الزراعة.

هل يعجبني ذلك النوع من الرجال؟ لستُ أدري، لربما تعاطفتُ مع الحالة التي صار إليها.

ثم تذكرَتْ فيركا بلونه الأسمر الجميل.. وقالت لنفسها: أيعقل أن أكون قد أسقطت شخص جورجي على فيركا، ولذلك أقمت علاقة معه؟ أيمكن ذلك حقًا؟ أن أقع في حب حالة أدرسها على الورق، أم هي حالة من الفنتازيا شئتُ أن أعيشها؟

ثم ما معنى ذلك الكلام الذي تفوّه به جورجي عني في خطابه بالمحكمة؟

ومن بعدها ينتحر؟ أبهذه البساطة؟

عجّلت إدارة السجن بدفن جثة جورجي، ورفضتْ طلب كوزمينا بتشريح جثته، والذي كانت قد تقدمت به كي تطّلع على ذلك القلب المزروع في صدره، والذي كان سبب كل شيء، كما أنها كانت ترجو أن تكشف لها أحجية الستمائة عام تلك.

كانت إدارة السجن بفعلها ذلك تحاول أن تغلق بابًا يمكن انتقادها من خلاله، لسوء حال زنزاناتها سيئة السمعة.. والتي لم تتغير كثيرًا منذ انهيار الحكومة الشيوعية.. حتى أن تلك الأساطير عن الأنفاق الضخمة وتلك الأحداث الفظيعة التي تحدث هناك أسفل قصر البرلمان ما تزال متداولة إلى اليوم.

ورغم كل ما حدث، فإنه من السهل على كوزمينا أن تستمر في حياتها، كما أنها لن تجد مشكلة في الاستمرار في أبحاثها، لربما تتمكن يومًا ما أن تصل إلى يقين علمي عن الذاكرة الخلوية.

هي لا تلبث أن تأتي ببعض كلمات جورجي في خاطرها بين فترة وأخرى، كما حدث معها ذات يوم:

قال لي شيئًا عن وسط المدينة.. أليس كذلك؟ نعم، إنه ميدان.. ميدان أونيري حيث نافورة أونيري.. وتقرر كوزمينا أن تذهب بنفسها إلى هناك.

تقع نوافير أونيري في ميدان أونيري في سط مدينة بوخارست، بالقرب من الحي اليهودي. وهي مجموعة كبيرة من النوافير تتوسطها نافورة كبيرة. وما يميزها هو أن المياه حمراء بلون الدم، وهي بالفعل تسمى نوافير الدم.. وكم هو مثير للسخرية أن تبني دولة دراكولا نافورة دم!

تكمن الرمزية الرسمية لهذه النافورة في كونها تعبيرًا عن التضامن مع مرضى الـ«هيموفيليا»، وهو مرض شائع لدى الرومانيين يصيب الدم ويمنعه من التخثر. كم يبدو هذا مرضًا مناسبًا جدًا لدولة دراكولا! حيث يستمر الدم المسفوح في الانسياب دون تخثر يوقفه. كان هذا ليوائم الكونت دراكولا دون شك.

بينما تتأمل كوزمينا نوافير الدم.. تتذكر كلمات جورجي لها بأنها تبدو مريحة، وتفكر كيف يكون لمنظر كهذا أثرًا مريحًا.. وتتقدم من وسط النافورة الكبرى في المنتصف. ثم تقرر أن تدخل النافورة، إلى أن تصل ذلك الجذع الرخامي في وسط النافورة، بينما يرقبها الزوار

ويصورونها كمشهد بدا للبعض منهم مثيرًا للاهتمام. تقترب كوزمينا من الجذع لتجد رخامة عريضة، فتضع يدها عليها لتلحظ بأنها ليست مثبتة تمامًا، فتحاول رفعها، فتنجح في ذلك، وتمد يدها لتجد شيئًا ما هناك.

كان صندوقًا خشبيًا. فتمسك به وتعود إلى خارج النافورة حتى لا يبتل ما هو داخل الصندوق عند فتحه. تقوم كوزمينا بفتحه بحذر، لتجد لوحة فنية تضم شخوصًا تاريخية، يبدو فلاد الثالث أحدها.. ليس ثمة ما يثير الاهتمام.

لحظة.. ما هذا؟ كان هناك، أحدهم يبدو مختلفًا.. حليق الوجه، تبًا! إنه.. امرأة.. إنها تشبه، تشبهني!

وفي ذلك الوقت كان هناك شرطي يتجوّل حول النافورة، فيخبره أحد المراقبين لها بما يجري. فيوجه الشرطي النظر إليها.. ويبدأ بالاقتراب منها وهي لا تدري.

بينما كانت كوزمينا لا تزال تتفحص اللوحة، حيث كان هناك ما يشبه الرسالة مكتوبة خلفها، ولم تجد تاريخًا أو إشارة عمّن يكون المخاطب فيها :

«أهي شعرة؟ تلك التي ما تزال تصل بيننا، والتي لستُ أدري لمَ أهتم بألا تُقطع، فأقوم بالابتسام أحيانًا، رد التحية.. أو رد السؤال عن الحال أحيانًا أخرى؟ كلنا نفعل ذلك، هو جزء لا يتجزأ من منظومة النفاق الاجتماعي التي نعيشها مرغمين لكن، منسجمين.

لستُ أعلم متى تحوّلت مشاعرنا على هذا النحو. متى ضاقت جسور التواصل هكذا حتى صارت شعرة، على ما أعتقد. أهي النهاية؟ لعلها حقًا كذلك، لكن الأشياء لا تهم إن وصلنا للنهاية. ولهذا يبدو حرصي على ألا تنقطع الشعرة أو أيًا كانت، أشبه برفع العتب، وهو مقارنة بما كانت عليه طبيعة علاقتنا، أمر لا يقل قسوة عن قطعها أو جزّها أو حرقها، أيًا كانت شعرة أو أكثر. لا يهم، ففي النهايات لا شيء يهم.

إن كان ثمة شيء يهم، فهو تلك الأشياء التي نعرفها تمامًا دون حاجة بنا إلى يقين.. تلك الأشياء التي نعرفها عن ظهر قلب».

*****

عن ظهر قلب

د.محمد حمدان

رواية